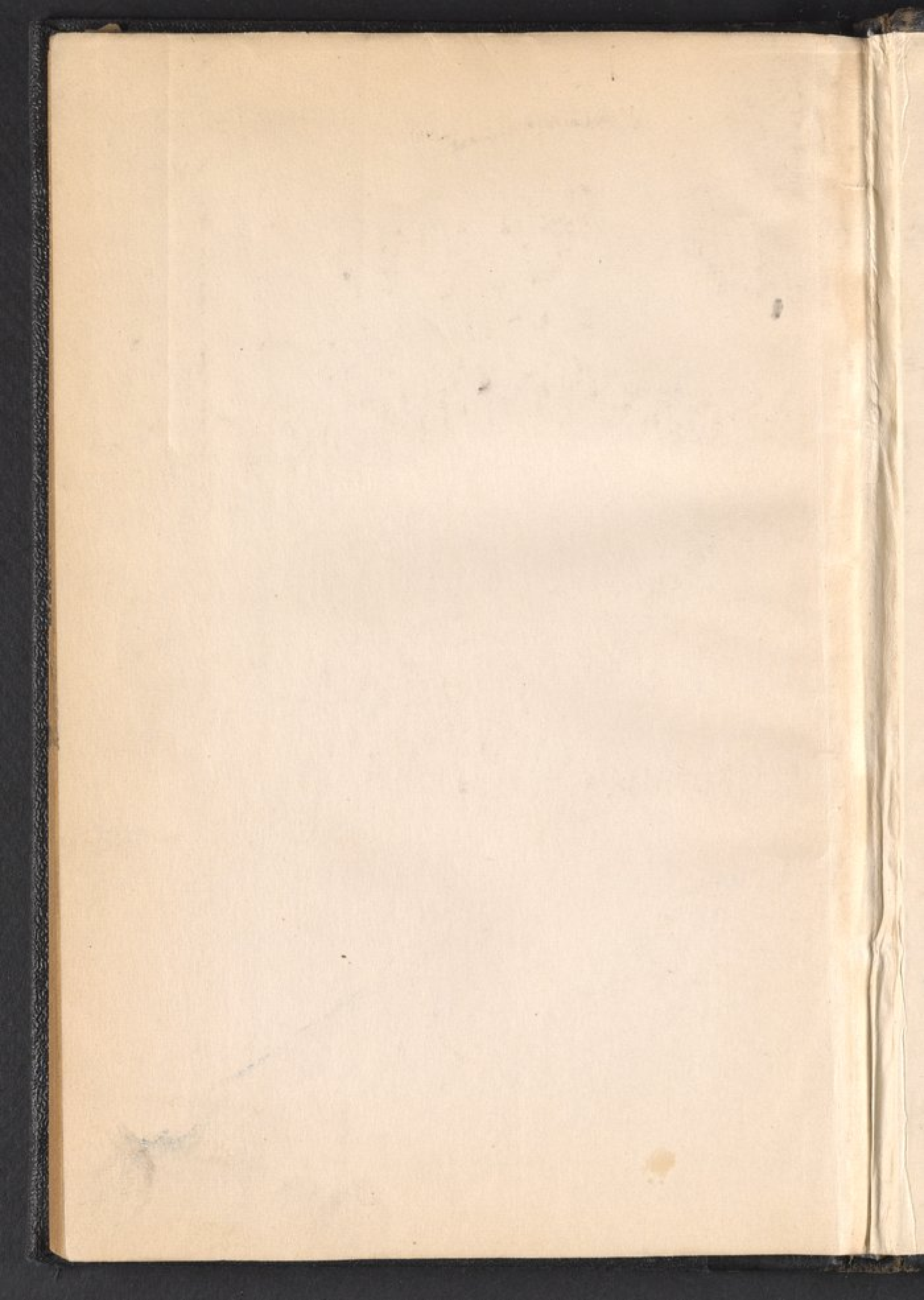
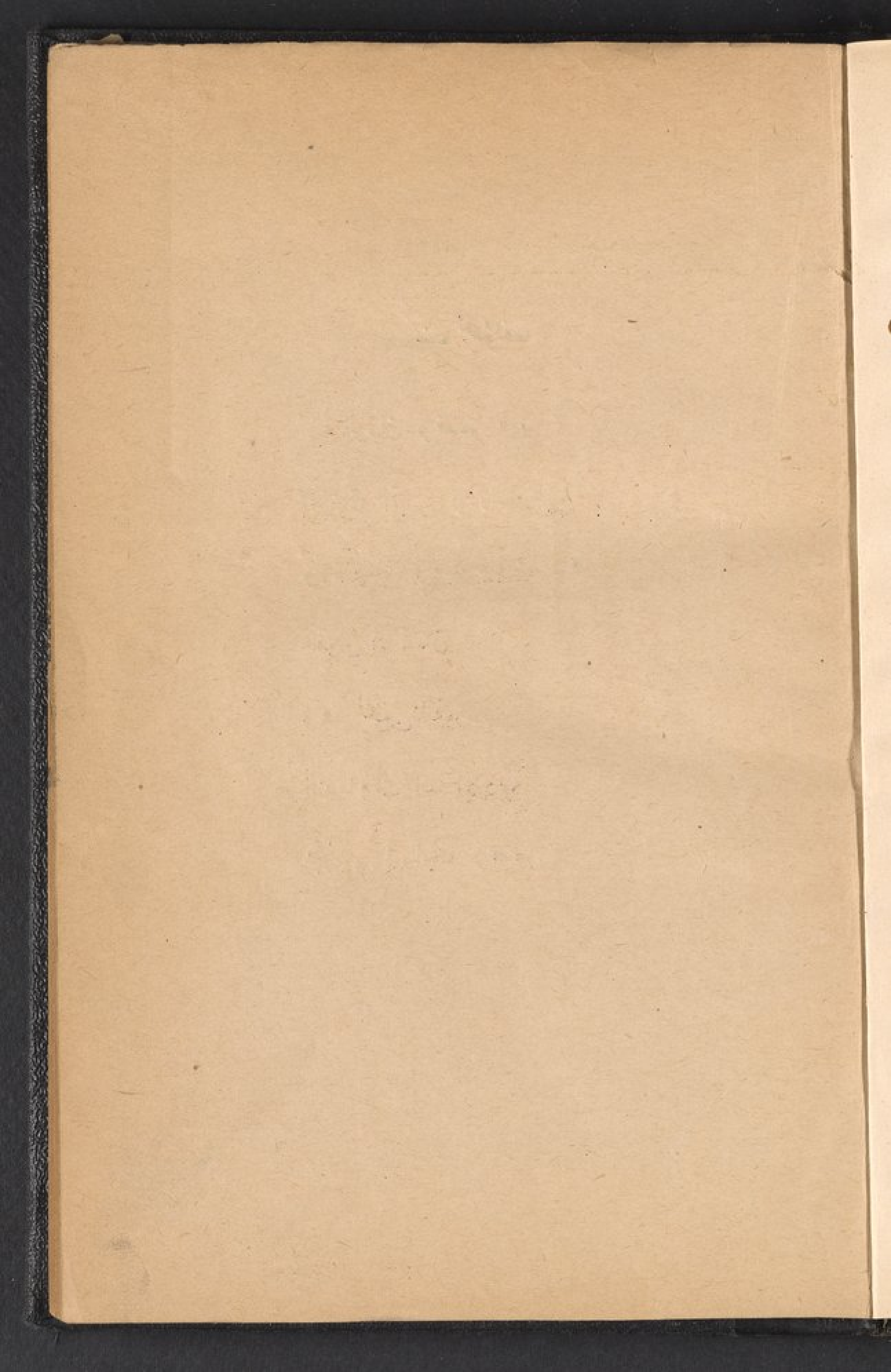
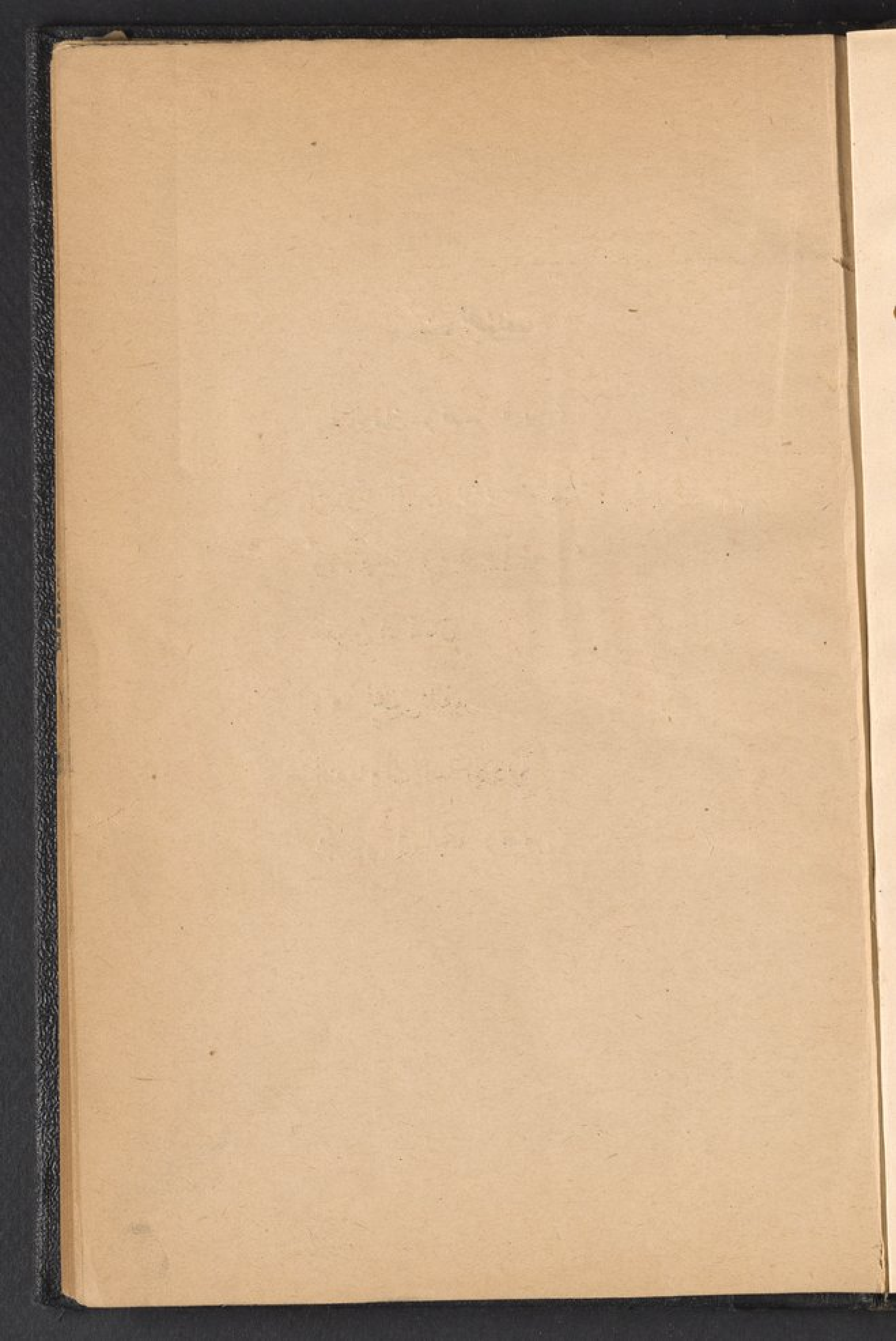


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01000 6850







كتب للمؤلف

حبة الرمان (قصص عربية)

امرىء القيس (دراسة تحليلية)

ثورة بيدبا (مسرحية شعرية)

حقوق الانسان

وهل يخفى القمر

النقد والدراسة الادبية

مجوسي في الجنة (قصص)

رئيف خوري

معالم الوعي القومي

منشورات دار المكشوف

بيروت * ١٩٤١

طبع من

هذا الكتاب

الفا نسخة على ورق عادي

جاء في الكتاب : « في البدء كان الكلمة . »

. . . .

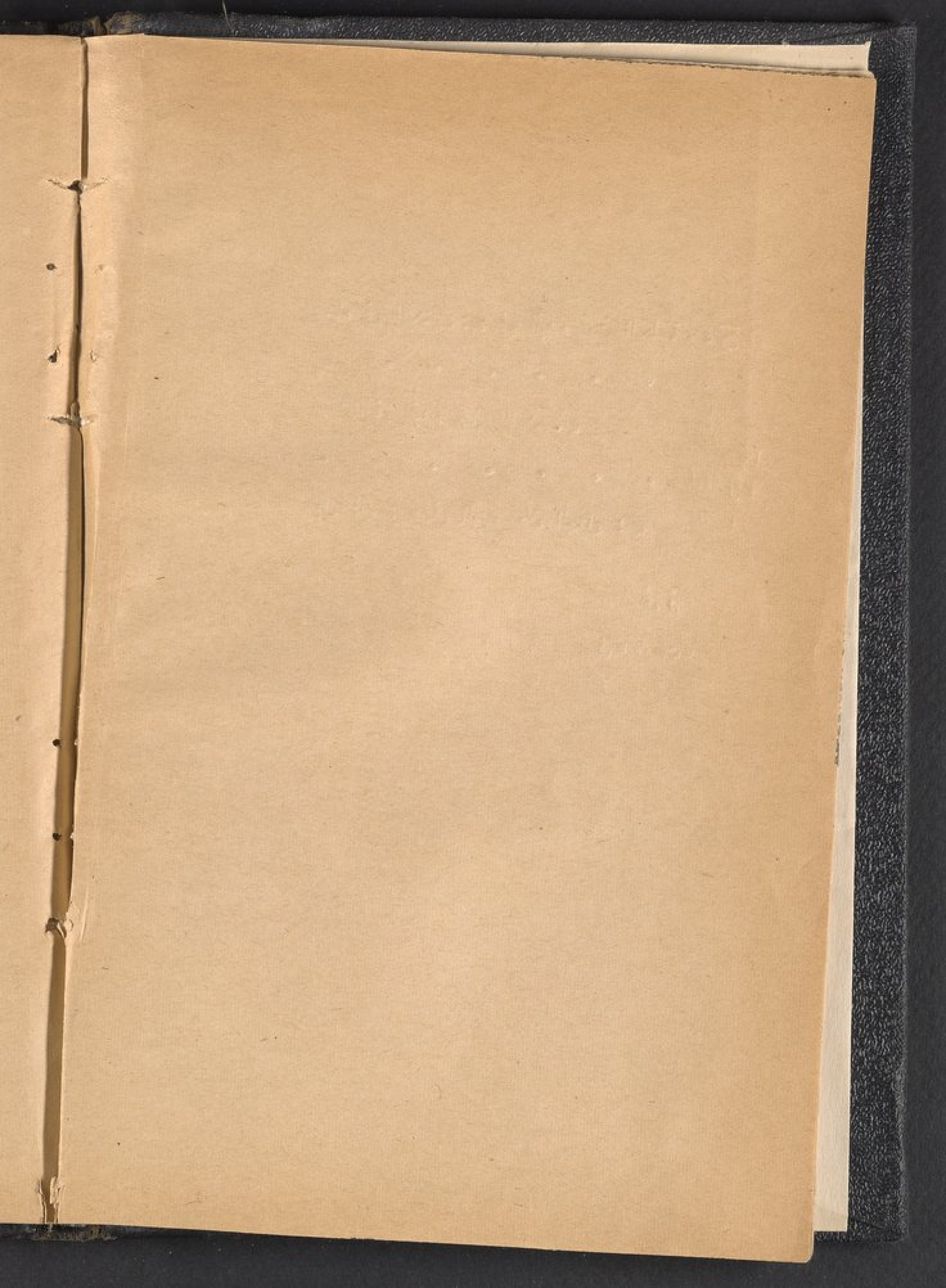
كلا ! في البدء كان الفكر . »

. . . .

بل قل : « في البدء كان العمل ! »

غوته

في « فاوست »



مقدمة

في الاندية جميعها حديث متصل عن القومية ، وليس الامر بعجيب . فطبيعي ان يكثر الاخذ والرد في هذا الموضوع اليوم .

وكنت منذ امد قد عقدت النية على الخوض في هذا المجال مع الخائضين ، ثم رأيت من الخير ان اعمد الى بعض ما كتب عن القومية عندنا فانظر فيه ، واعلق عليه . والحق ان ما قد كتب عن القومية في اللغة العربية ليس بيسير القدر ، فخشيت ان يتسع العمل امامي ويتشقق في وجوه ، فتضيع الفائدة المرجوة . ولذلك عزمت ان احصر عملي في كتاب واحد ذي قيمة احترم كاتبه . وصدر « الوعي القومي »(١ للدكتور قسطنطين زريق ، وهو من الشباب الذين يحرصون على ان يكون لهم تفكير جدي رزين في القضايا .

---

١) منشورات « دار المكشوف » ، بيروت . الطبعتان الاولى ١٩٣٩ ، والثانية ١٩٤٠ .

فارسلت كلمة اولى في الكتاب (١ ثم كلمة ثانية اوسع (٢
ولكني في الكلمتين كنت مستعجلا وقد ابديت فيهما اعترافا
عاما بفضل الدكتور لا اتزحزح عنه . وها انا اليوم اعيد
الكرة للمرة الثالثة ، وقد شعرت ان النظر المتأني في هذا
الكتاب والتعليق المستفيض عليه انما يستدرج الى معالجة
موضوع القومية الخطير .

فهذا السفر الذي تجده بين يديك ايها القارئ هو نقد
لكتاب « الوعي القومي » . وآمل ان اكون وفقت فيه الى اكثر
من نقد كتاب بعينه ، فزدت بعض وضوح مسائل لم تزل
مختلطة غامضة حتى في اذهان بارزي رجال الثقافة منا ...

رئيف خوري

---

١) جريدة « المكشوف » العدد ٢٦٢ .

٢) جريدة « المكشوف » العدد ٢٧٣ .

غرض الكتاب ونظرة عامة فيه

يقول الدكتور زريق في مقدمة كتابه :

« ليس هذا الكتاب الذي اضعه الآن بين ايدي القراء بحثاً منظماً في العقيدة القومية على النحو الذي وصفت » (ص ٢٧ [١]) .

ثم يقول :

« فلقد اقدمت على نشره ، على انه خطوة اولية متواضعة الخ ... » (ص ٢٨) .

واذن ، فمن الانصاف للاستاذ زريق ان نأخذ بعين الاعتبار ان كتابه فصول لم يقصد بها الى « بحث منظم » ، وانه « خطوة اولية متواضعة » . غير ان ذلك لا يجوز ان يعتبر مبرراً لكل تقصير او ارتباك من الدكتور خصوصاً وهو يقول عن فصوله انها « تؤلف وحدة فكرية روحية بما تصدر عنه من عقيدة واحدة تشيع فيها جميعاً » (ص ٢٧ - ٢٨) ، بل لا يعني ان الدكتور لم يضع امامه اغراضاً اراد

---

١) كل ارقام الصفحات تعين موضع المقتطفات في الطبعة الثانية لا الاولى .

القيام بها في هذا الكتاب الذي دفعه الى الجمهور .

فما هي اغراضه ؟

يقول في مقدمة الطبعة الاولى :

« ليس من امل للنهضة القومية العربية ما لم تكن مستمدة من « فلسفة » قومية تصور روحها وتحدد اتجاهها وتنصب لها الاهداف وتعين لها السبل والوسائل » (ص ١٩) .

ثم يقول :

« انني متيقن بالوقت نفسه ان ذلك الجهاد لا يبلغ غايته الا اذا كان مدعوما بفكر واضح نير ، وان هذا العمل لا ينتج حقاً الا اذا صدر عن رأي بصير وعقل مدبر » (ص ١٩ - ٢٠) .

واذن ، فيحق لنا ان ننتظر في الكتاب « فلسفة قومية » و « فكراً واضحاً نيراً » .

بل ان الدكتور يرسم امام النهضة القومية العربية كي « تستكمل شروطها وتؤتي ثمارها » ، « ثلاث خطى رئيسية يترتب علينا اتخاذها بحزم ونشاط » (ص ٢٠) .

وهي :

١) انشاء « فلسفة قومية » شاملة واضحة منظمة .

٢) أن تُعصر هذه الفلسفة في فكرة مقطرة نقية صافية يتشربها ابناء الامة وتمتزج بعاطفتهم المتوثبة وشعورهم الفياض

فيحصل من هذا المزيج المبارك « عقيدة » قومية .

٣) « تنظيم » الامة العربية وضبط نوازعها واخضاع شهواتها وارادتها للارادة الوحيدة المنبعثة من « العقيدة الواحدة » (ص ٢٠ - ٢١) ، اللفظ له) .

فيحق لنا ضمناً ان ننتظر في الكتاب بعض التطبيق لهذه الخطى ان لم يكن كل التطبيق ، والا فلا يتعدى الكتاب ان يكون اكثر من جملة مواعظ وارشادات : يجب ، ويجب ، ويجب ... وقديماً قال المعري : « كم وعظ الواعظون منا ! »

ولكننا نقرأ سفر الاستاذ زريق فلا نكاد نجد اثراً لما وعدنا ، او وعدنا به انفسنا ، اتكالا على مقدمته .

فعبثاً نبحث عن موضوع يقول لنا فيه المؤلف : هذه هي « الفلسفة القومية » او هذا هو اساسها .

ولعله شعر ان كلمة « فلسفة قومية » غامضة جداً ، فوضعها بين قوسين مزدوجين . والواقع ان قولنا « فلسفة قومية » حري ان يسوقنا الى تورط وارتباك اذا كنا نتوخى ان يفهم منا القراء شيئاً مبلوراً محدداً . لان الفلسفة بجوهرها ومعناها العلمي نتاج فكري بشري عام [١] . فلو قلنا مثلا فلسفة المانية

---

١) وقد مس الدكتور بشيء من هذا حين قال : « الحياة العقلية البشرية في جوهرها وحدة لا تتجزأ » (ص ١٧٥) .

او فرنسية او عربية فلا يجوز لنا ان نقصد (اذا كنا نقصد معنى مضبوطاً) اكثر من ان هذا المنحى الفلسفي او ذاك (أي : هذه النظرة او تلك الى الوجود والمجتمع البشري ، بنوع خاص) هو المنحى الاوسع انتشاراً بين المفكرين الالمان او الفرنسيين او العرب ، به يتأثرون في حياتهم القومية واتجاهاتها ، كما ان هذا المنحى الفلسفي نفسه يتأثر جداً بالحياة القومية والعالمية واتجاهاتها .

وبعد ، أليس من المضحكات ان نفكر جدياً برسم فلسفة قوميـة اولا ، كأن القضية قضية خارطة هندسية ، ثم نعمد على اساسها الى تشييد كياننا القومي ؟

ولكن لم — انا حريص على « خصام » هذه الكلمة « الفلسفة القومية » ؟ لاني اوانا قد بلغنا مبلغاً سخيفاً من الحرص على الصاق القومية بكل شيء . وبالامس ما سمعت من احد المثقفين ان العرب انما يرمون الى بناء « حضارة قومية خاصة » ، ولا يرضون حضارة في العالم . وهذا كلام ترجمته ، حسب الفهم البشري : ان العرب لا يريدون سككا حديدية مثلا لانها تكثر في اميركا ، وان استعملوها فلا تكون حضارتهم « قومية عربية خاصة » . ولكنهم ان لم يستعملوها ، ان اطرحوا السكك الحديدية والسفن والجسور وشتى الآلات الصناعية ، فاي حضارة يبنون ، خاصة او غير خاصة ؟

وعلى هـذا القيـاس ، اذا فهم قراء الدكتور بالفلسفة القومية ما يفهمه ذلك المثقف بالحضارة القومية الخاصة ، فاي قرار سحيق من السخافة نتدهور اليه ؟ اي حماقـة مثلا ان يقول قائل : ما لنا ولأرسطو وديكارت وهيجل ، فهؤلاء لا يدخلون في فلسفتنا القومية ؟ ما لنا ولدرس تحدر القوميات الاخرى ، ففلسفتهم حتما غير فلسفتنا ، او فلسفتنـا ينبغي ان تكون غير فلسفتهم ! ولست انسى مرة قلت فيها : ان البداوة والاوضـاع العشائرية تناقض القومية كل المناقضة ، فمن اهم اهداف القومية العربية اذن تحضير البدو : توزيع اراضي عليهم وتيسير الوسائل لهم ليعمروها . فاجابني مجيب : هذه ليست من الفلسفة القومية ! ــ زه ! زه !

واني لمطمئن الى ان الاستاذ زريق لا يرمي الى شيء من هـذا الهراء البتة . وفي كتابه نفسه ما يبعثني على هـذا الاطمئنان . غير اني لا ازال انكر عليـه هذه « الفلسفة القومية » ، لانها ــ عدا ما اسلفنا ــ خليقة ان تلذ بعض القراء بنفسها وتصبح نغمة ببغاوية تكرر بذاتها الى ما شاء الله : فلسفة قومية ، فلسفة قومية !

خصوصاً والدكتور نفسه قد سكت في لباقة عن تفسير هذه الفلسفة القومية في « فكر واضح نير » لو « عصرها في فكرة مقطرة نقية صافية » . فدعانا الى ان « نعتقد ان

لنا رسالة ما » ، « وان نؤمن انها اعدت لنا واننا اعددنا لها »
(ص ٥٥) « فحسبنا » ذلك ، كما سنرى .

ولما كانت هذه « الفلسفة القومية » غير محددة وكان « حسبنا ان نعتقد ان لنا رسالة ما » فقد ظهر تقصير الدكتور حين عرض له ان مس بموضوع تنظيم الامة العربية فلم يكن عنده شيء عملي يقدمه لنا الا مشاريع انعاش القرى والكشفية ونشر بعض المخطوطات القديمة . واغرق في المواعظ والارشادات كوجوب نبذ المادة والانسلاخ من الانانية وضرورة الجهاد الاكبر ، جهاد النفس الصوفي ، وهلم جرا مما قد سمعناه مرة بعد مرة بعد اخرى في كل كتاب ومدرسة من مدارس الاحد .

ولكن علام نستعجل الامور ؟

« الفلسفة » في كتاب « الوعي القومي »

على اننا سنفتش في كتاب الدكتور عما فيه من « اساس فلسفي » ، يلمح لمحاً خلال السطور هنا وهناك .

من المسائل البدائية ، بل المسألة البدائية في الفلسفة عامةً ، قضية الفكر والمادة . اي اول : الفكر ام المادة ؟

اما الذين يقولون باسبقية الفكر على المادة فاولئك المثاليون . واما الذين يقولون باسبقية المادة على الفكر فاولئك الماديون . (مع العلم ان المثالية هنا هي غير المفهوم الدارج منها اي : الاعتقاد بمثل اعلى ، والمادية هي غير التهالك على المال والمأكل والشهوة) .

أمثاليٌ الدكتور في كتابه ام مادي ؟ بتعبير آخر ، أيعتقد الدكتور ان الفكر او الادراك هو سابق للمادة ، للكون الخارجي والطبيعة ، ام يعتقد ان المادة سابقة للفكر ؟ يقول :

« حقاً ان قيمة الانسان وثقافته وسعادته كلها تتوقف على اتساع عالمه الروحي . والرجل الامثل هو الذي يشمل عالمه الكون باسره والبشر بكاملهم ، لا بل هو الذي يشق حجب

الارض والسماء فينفذ ببصره الى ما وراء الكون وينطلق على اجنحة الخيال فيمتد نظره على جميع عوالم الطبيعة والانسان . هو الذي لا يكفيه الحاضر بمشاكله ومشاغله ، وانما يتبنى الماضي بميراثه وآلامه والمستقبل بآماله واحلامه . فهو بحق ابن العالم باسره والزمان بكامله » (ص ٢٢١) .

وفي هذا الكلام ما قد يساعدنا على ان نستشف نظرة الدكتور زريق الى الفكر والمادة . فلنحاول . يرى الاستاذ فيما يرى ان الرجل الامثل هو الذي يشمل عالمه الكون باسره والبشر بكاملهم ، هو بحق ابن العالم باسره والزمان بكامله . وهو رأي لا بأس به ، الا ان يقصد قصد بعض المتصوفين مثلا حين يدعونا الى تجاوز ما يسمونه « التمييزات الوهمية » و « الفروق الظاهرية » في هذا الكون واهله ، فيموعون العالم والمجتمع تمييعاً ويصبح « لبناً رائباً » او « شوربا »(١ . فالدودة اخت الانسان كما يقول ميخائيل نعيمه ،

---

١) مما يستحق الملاحظة ان الدكتور بعد وصفه للرجل الامثل الذي هو (ابن العالم باسره والزمان بكامله) يسرع الى شبه استدراك في ما يخص العرب (ص ٢٢١ — ٢٢٢) . والمفهوم ضمنا من كلامه هناك ان العربي لا يستطيع اليوم ان يكون الرجل الامثل ، بل عليه في توسيع عالمه الروحي ان يقتصر على الوطن العربي . واذن فالدكتور ليس بعيدا في فهمه الرجل الامثل عن فهم الصوفيين الذين « يموعون » الرجل الامثل ويموعون العالم

والفقير والغني سواء ، والمنصور والمكسور لا يختلفان. وهكذا ..
واتصور ان سيداً من اسياد الرقيق الرومان كان لا يجد بأساً
اذا اضطره الامر ان يخاطب عبيده متأدبا : احرثوا يا شباب ،
كلنا اخوان !

ولكن ليس في كل هـذا ما يؤكد لنا مثالية الدكتور
او مادبته . على اننا يجب ان لا ننسى ان الرجل الامثل هو
ايضاً الذي يشق حجب الارض والسماء فينفذ ببصره الى ما
وراء الكون . الى اين ؟ ولأي مقصد ؟ سكوت . ولكن
اذا صح تقديرنا ، فهناك ما وراء الكون يستطيع الرجـل
الامثل ان يطلع على القوانين المحفوظة التي يجري بموجبهـا
تدبير هذا الكون ومظاهره . وهذا من كلام المثاليين .

ولا شك عندي ان الدكتور يوافقني على اننا لسنا بحاجة
الى شق حجب الارض والسماء والنفوذ ببصرنا الى ما وراء

معه والمجتمع . والا فان الرجل العربي يستطيع ان يكون امثل ، اي :
ابن العالم باسره والزمان بكامله ، ويخدم عروبته خدمة صحيحة ، بل ان
الامرين مرتبطان . وفهم مصالح العرب لا يكون بالعمى عن العالم وسير
الزمـان الا اذا اعتبرنـا العرب قـائمين على تعبير الفلاسفة في (لاعـالم)
و (لازمان) . والدكتور زريق يعرف سخف هذا ، الا ان معرفة الشيء
عندما يواجهه الكاتب مباشرة مسألة ، وعدم نسيانه في كل ما يكتب مسألة
اخرى . كما سنرى .

الكون كما نحن بحاجة الى فهم الكون نفسه ، الى ان « يمتد نظرنا الى جميع عوالم الطبيعة والانسان » لا من شباك ما وراء الكون ، ولا من اجنحة خيال ننطلق عليها ، بل من درس حقائق الكون . واذكر بالمناسبة كلمة لـ « باكون » مؤداها : اننا لسنا بحاجة الى ريش خيال نطير بـه بل الى « ثقالات » من رصاص ترسب بنا الى الحقائق .

ومن المسائل الاولية في الفلسفة عامة قضية المعرفة والحرية . كيف نعرف ؟ هذا سؤال فلسفي اساسي . ومثله السؤال : ما هي الحرية ؟

يدعو الدكتور دعوة متكررة الى اتباع اساليب البحث العلمي فيعترف بان الحقائق العلمية نسبية ، وفي كتابه جمل صحيحة جداً كقوله : « ان دائرة المجهول اوسع كثيراً من دائرة المعلوم » (ص ١٩٢) و « ان ما يصيب المرء في حياته من حقيقة ليس سوى جزء ضئيل لا يصح معه اي تكبر او افتخار » (ص ١٩٣) .

وفصله عن الثقافة الصحيحة وعناصرها ممتع على وجه عام ، ويجدر بجميع مثقفينا قراءته وهضم ما فيه ، ومنهم الدكتور نفسه وانا .

الا انه لا يلبث ان يقول لنا كلاما كالذي يلي :

« اما ذلك الاسلوب الفكري الذي صورناه فيختلف عن

المعلومات الخارجية المتفرقة في أنـه لا يلقى من الخارج ، بل يجب ان ينمو من الداخل بنتيجة جهاد شديد متواصل قـد يستمر سنين طوالا (ص ٢٤١) .

ولعل الاستاذ زريق لو نقل هذا الكلام الى لغة صريحة لم نجد به بأساً . ولكن قوله ان ذلك الاسلوب الفكري الذي صوره لا يلقى من الخـارج بـل يجب ان ينمو من الداخل ، قـد يؤخذ مأخذ الحض على الرياضـات الصوفيـة لاكتساب المعـارف . وصواب جداً ان الاسلوب الفكري الصحيح يختلف عن المعلومات المتفرقة ، ولكن ما معنى قوله المعلومات الخارجية ؟ أتراه يعني السطحية ؟ ام يقصد المعلومات التي يكتسبها الانسان من التأثر والتأثير في العـالم حوله عن طريق حواسه وعمله واستنتاجه العقلي ؟ ان كان قصده هذه المعلومات فليس لدى البشر معلومات الا وهي خارجيـة بمعنى انهـا مستقاة من الكون خارج البشر عن طريق حواسهم وعملهم واستنتاجهم العقلي !

ويعيد علينـا الدكتور زريق مرة اخرى ذكر هذه « المعلومات الخارجية » ويشم من حديثه رائحة الازراء بها ، فيقول (والضمير في كلامه يرجع الى المعرفة) :

« لا نقصد بها تلك المعلومات الخارجية المتفرقة التي نطلي بها اشخاصنا ، بل نعني هيئة روحية تحصل للنفس من استمرار

البحث واستخراج المعلوم من المجهول واشراق نور الحقيقة على الانسان » (ص ٢٤٧) .

هيئة روحية ! حقاً ان هذا تعبير تعوزه الترجمة الى لغة يفهمها مطالع عادي مثلي . وانا واثق انني لو قلت للدكتور ان المعرفة الصحيحة التي يسوق الحديث عنها انما هي هيئة روحية لعدني متظرفا . ولو قلت له انها هيئة روحية تحصل باستمرار البحث واستخراج المعلوم من المجهول واشراق نور الحقيقة على الانسان (بعد ان أزري له بالمعلومات التي يستنبطها الانسان من محيطه الخارجي ، اي : من الكون حوله) لقال لي : ولكن اين يجري استمرار بحثك هذا واستخراج المجهول من المعلوم واشراق نور الحقيقة عليك ان لم يكن استكشافا علمياً في الكون حولك ؟ فيحرجني حقاً ، الا ان اقول له ان كل ذلك : (استمرار البحث واستخراج المجهول من المعلوم واشراق نور الحقيقة) يقع في دخيلة نفسي وكهف ضميري بالمشاهدة الصوفية ورؤى الصالحين وغيبوبات الدراويش .

والمشاهدة الصوفية كما علمتنا الوقائع طريقة مسكينة على تعبير الفرنج لاكتساب المعارف الصحيحة ، ووعرعة ودي قومي مكين وتشييد كيان « قومي » على اساسها .

واما الحرية فمتصلة بالمعرفة اوثق اتصال . يقول الدكتور زريق : « المرء يظل عبداً لما حوله ما دام يجهله » (ص

٢٤٦) . وهو قول صحيح جداً . ثم يقول : « كل خطوة جديدة يخطوهـا العـلم تحطم قيداً من قيود الانسان وتحرره منه فالمعرفة اذن ، وجه من وجوه الحرية » (ص ٢٤٦) .

وهنا نتساءل : ما يعني الاستاذ بهذه الكلمة « وجه » ؟ ومنطوق صدر عبارته ان العلم (اي : المعرفـة) هو محطم قيود الانسان ومحرره منها . وعلى ذلك فينبغي ان يكون استنتاجه ان الحرية ناشئة من المعرفة ، وهو الصحيح .

ولكن فلنقرأ له ما يلي :

« لست اعني الحرية الخارجية التي تبذل من فوق ، بل تلك التي تنمو من الداخل » (ص ٢٤٥-٢٤٦) .

وقد تعودنا الآن هـذه الالغـاز « الحرية الخـارجية » و « تبذل من فوق » و « تنمو من الداخل » فنحن نستطيع تقدير معانيها باللغة البشرية المتعارفة .

رأينا الدكتور يزري « بالمعلومات الخـارجية » والارجح انه يقصد بهـا تلك التي يكتسبها الانسان عن طريق معرفـة الكون حوله ودرسه علمياً . ولا نعلم لماذا قدر ان هذه الحرية « تبـذل من فوق » ، وفرقهـا عن الحرية التي « تنمو من الداخـل » . وقوله « من فوق » يعني في كل فهم بشري قوله « من الغيب » ، وقوله : من الغيب ، لا يختلف جداً عن قوله من « الداخل » اذا كان يحملها محملها الصوفي اي :

محمل تجرد عن العالم واغراق في التأمل ينتهي بيد تمتد « من فوق » فتزيح الاغشية وتقذف النور في القلب ...

وان كان لا يحملها هـذا المحمل فلا يبقى لقوله « من الداخل » و « داخلية » موجب البتة . لان كل المعنويات كالحرية والمعرفة انما هي « داخلية » في الادراك الانساني ، ولكن مصادرها ووسائلها من الطبيعة والكون حول الانسان اتت عن طريق الحس والعمل والاستنتاج . واصرار الدكتور مثلا على جعل الجهل من القيود الداخلية (ص ٢٤٦) فيه طرافة . أليس قولنا « الجهل من القيود » يغني ؟ وكذلك اصراره على « اطلاع شامل متوازن مكتسب بالجهد العقلي الداخلي » (١٨٩) كأن احداً من الناس رأى « جهداً عقلياً » غير « داخلي » في دماغ انساني ما .

ولكن الاستاذ زريق يأبى الا ان يكون كل شيء ذي قيمة « من الداخل » او « داخلياً » يحصل في النفس او العقل . واما ما هو « من الخارج » او « خارجياً » فيمر به مر استخفاف ! وهذا أثر من انفعاله بغيبيات الصوفيين وتعابيرهم المعماة .

ولقد مس الدكتور بقضية الحرية في موضع آخر من كتابه قال :

« فبقدر ما يكون المرء عبداً لما هو اعظم منه يصبح

حراً في نفسه ، وبقدر ما يفني شخصيته فيما هو اوسع منها يبقى البقاء الحقيقي الذي لا تشوبه شائبة ولا يعتريه وهن » (ص ٢٢٨) .

واول ما سأفعل بهذا الكلام في الحرية ان اجريه على لسان طاغية من الطغاة : نيرون مثلا . لو فرضنا ان هذا الامبراطور السعيد الذكر احس بقوم من رعيته يتطلبون الحرية أفكان يجد احسن من ان يخطبهم قائلا : أتريدون الحرية ؟ انا ادلكم . امبراطوريتي هي شيء اعظم منكم ، من ينكر ذلك ؟ وانتم عبيدي . (ومن ثم يقرأ كلام الدكتور) : « فبقدر ما يكون المرء عبداً لما هو اعظم منه يصبح حراً في نفسه ، وبقدر ما يفني شخصيته في ما هو اوسع منه يبقى البقاء الحقيقي الخ . » فازدادوا عبودية لامبراطوريتي تزدادوا حرية ، وازدادوا فناء في ما هو اوسع منكم تزدادوا بقاء حقيقياً .

واني لموقن ان الدكتور زريق لا يقصد ان ينتفع بكلامه نيرون وامثاله . ولكن حسن القصد « الداخلي » ، اذا سمح لنا الدكتور ان نستعير منه نعتاً مستحباً عنده ، لا يكفي . ومثل كلامه المبهم في الحرية التي هي عبودية المرء لما هو اعظم منه ، جدير ان يجر بلبلة وخلطاً في المفهومات ، والاستاذ حريص على التفكير الواضح النير .

والآن ما هي الحرية فلسفياً ؟ قد يتقلص انسان في كهف نفسه ويقول : تنازلت عن العالم الخارجي ، واسقطت قيوده عني ، فانا حر بحرية نفسي واستغنائها بذاتها !

والواقع ان هذه « حرية » تفشي اقبح انواع العجز والاخفاق . وهي لا تنزع قيود الانسان بل تحمله على تجاهلها او الغفلة عنها ، كالطبيب الذي يقتصر في معالجة مصاب بالتيفوس على قوله : انس انك مريض .

والحرية الصحيحة ، لا الوهمية ، هي المبنية على المعرفة الصحيحة ، على ادراك الكون حولنا واستكشاف نواميسه علمياً ، وما يقدمه من وسائل ، وتسخيره لخيرنا .

ألا يوافقني الدكتور ان الانسان في العصور السحيقة كان مثلا عاجزاً عن اجتياز الانهار الكبيرة ، كان يجهل ان الخشب يعوم في الماء ، وانه يستطيع ان يركب خشبة فكان بهذا الجهل غير حر (من ناحية من النواحي) . ثم رأى يوما شجرة انقلعت وسقطت في نهر فعامت . فخطر له خاطر اعداد خشبات وركوبها . ثم ادرك ان خشبته هذه لا تسير به الا مع التيار في الماء المنطلق ، ولكنها في الماء الراكد لا تسير . فما لبث ان اخترع مجذافا . وهكذا تمّ له زورق بسيط ، فاصبح حراً على اجتياز الانهار وظل يتقدم في صناعة الملاحة وتجويد وسائلها ، وتنمو بذلك حريته وقدرته على

مخر اللجج حتى بلغ مبلغه اليوم . ولو ان الانسان انتظر حرية الدكتور التي « تنمو من الداخل » ليعبر الانهار لكنا لا نزال الى اليوم جالسين على ضفة نهر او بحيرة ننتظر .

على ان الدكتور ربما صاح بنا : ولكنكم لا تفهمون القضايا الا عن طريق المادة ، وانا قد اخذت القيم الروحية بعين الاعتبار .

فلننظر في قضية الروح والمادة عنده .

يقول الدكتور زريق :

« انما الحق ان نقول ان مدنيات العصور القديمة التي زهت في الشرق ادت رسالة روحية ، وان مدنية العصر الحديث التي ازدهرت في الغرب لا تزال في شكلها الطاغي مادية . ولكن هذه المدنية الحديثة اخذت تجتاح الشرق ايضاً ، فلم تبق لروحيته اثراً يذكر ، وطما سيل المادة فغمر جميع نواحي الحياة فيه » (ص ٢٢٣) .

ويقول في فصله الممتع عن الثقافة الصحيحة وعناصرها ، اذ يتحدث عن حرصه على ايضاح المقصود من لفظة « ثقافة » :

« لا افعل ذلك لاقدم نتائج نهائية ... بل لاثير اهتمام الباحثين بضرورة هذا العمل الايضاحي ، فيعمدوا الى هذا وغيره من الالفاظ الاساسية في لغتنا العقلية الحديثة ويأخذوها بالبحث والتمحيص » (ص ١٨٢) .

ومن هذه الالفاظ الاساسية في لغتنا العقلية الحديثة لفظة الروح والمادة ؛ فلقد دللنا لفظتي الروح والمثالية كثيراً على ما اظن وشوهنا لفظة المادة . ومرجع ذلك هو طغيان المفهوم الاخلاقي بالالفاظ عندنا . فالامر الروحي نبيل نقي ، والانسان المثالي هو صاحب المبدأ الذي يترفع عن الدنايا ، اما الرجل المادي فهو الذي يسكر ويتهالك على المال وليس له عقيدة . ولا حاجة الى تذكير الدكتور ان هذه المفهومات مبتذلة لالفاظ الروح والمثالية والمادة في ميدان الفلسفة . ولكن ما العمل ، والدكتور زريق متورط في هذه المفهومات المبتذلة لهذه الالفاظ الاساسية في لغتنا العقلية الحديثة .

وفصله « ازمة الروح » مليء بالشواهد على ما يقول . فهو يتساءل بحماسة :

« أرأيت رجلا يزدري ميوله الشخصية واهواءه الفردية في سبيل ما يعتقد انه الحق ؟ أسمعت برجل يضحي بماله وراحته بل بحياته لنشر لواء الحرية والعدل ؟ أأدهشك شخص يحتقر جميع نعم الدنيا للعمل في خدمة بلاده ونهضة امته ؟ (ص ٢٢٥ - ٢٢٦) .

ويجيب :

« هذا وذاك وذلك هم رجال العقيدة » (ص ٢٢٦) .

ثم يقول حوالي آخر الفصل : « ما اكثر ما سمعنا ان

المادة هي اساس الحياة ، وان الحديث عن النفس والروح ضرب من العبث او نوع من الهراء . »

ومنطوق سياق الفصل ان رجل « العقيدة » لا يتلاءم مع من يعتقد « ان المادة هي اساس الحياة » وما اكثر ما سمعنا برجال يعتقدون ان المادة بمعناها الفلسفي ، هي اساس الحياة . ومع ذلك فقد كانوا رجال عقيدة واصحاب مثل اعلى وشردوا وشنقوا واحرقوا في سبيل عقيدتهم .

على ان الدكتور من غير ريب يستعمل لفظة المادة هنا بمعناها الاخلاقي والادبي .

وكذلك هو في زعمه ان مدنية الشرق القديمة ادت رسالة روحية ومدنية الغرب الحديثة مادية ، قد استعمل لفظتي الروح والمادة في غير المعنى الفلسفي العلمي المضبوط ، وهذا مستغرب في كتاب كثير الكلام عن الفلسفة والعلم والتمحيص .

وبعدُ ، فما يعني الدكتور زريق حين يقول ان مدنية الشرق القديمة روحية ، ومدنية الغرب الحديثة مادية ؟

ان كان يعني بالمادية الانغماس في المتارف والملذات ، فذلك من دأب اسياد القصور والثروات لا في الغرب اليوم فقط ، بل في الشرق ايضاً ، قديماً وحديثاً .

وان كان يعني بالمادية الاهتمام بانتاج وسائل الحياة وتنظيمها لحراثة الارض وتدجين الحيوانات وتشييد المساكن وشق

الطرق واستنباط الآلات ، فتلك اشياء تمشت مع المجتمع الانساني قاطبة في الغرب الحديث كما في الشرق القديم . ومن مفاخر الغرب الحديث انه خطا بها شوطاً عظيما ، والدكتور يعترف بذلك .

وان كان يعني بالروحية مثلا أعلى واخلاقا ملائكية ففي تاريخ الشرق القديم كما في تاريخ الغرب صفحات سوداء من فظائع الحروب والتدمير واراقة الدماء ، وفي تاريخ الغرب الحديث كما في تاريخ الشرق القديم صفحات مشرقة من حب الخير والتضحية واتباع المثل العليا .

وان كان يعني بروحية الشرق القديم ان الناس نظراً الى تأخر الدراسات الطبيعية وضعف فهم نواميس الكون فهما عملياً ، كانوا يكثرون من تأويل الامور برضى الارواح الصالحة او غضب الارواح الشريرة وتدخل العفاريت وتعبير المنامات والرياضات الصوفية ، فتلك « روحية » نستغني عنها ، ولا نأسف على ذهابها ان كانت قد ذهبت . ولا اعلم لماذا حصر « فضيلتها » بالشرق القديم وهي ظاهرة ترافق الجهل وانحطاط العلوم الطبيعية وضعف التفكير في كل مكان وزمان ، وخصوصاً في مرحلة الازمة العصيبة حين يعجز الناس (بعض المثقفين مثلا) عن ربط الازمة باسبابها في ميدان المجتمع اقتصادياً وسياسياً فيحولونها الى « ازمة روح » وينقلبون على

« الارواح البشرية اللعينة » يسلقونها بالسنة حداد ويصيحون بها : منك الويل والثبور وعظائم الامور ، من انانيتك وتراخيك ووحشيتك . وهلم .

والخلاصة ان زعم الدكتور زريق « ان مدنية العصر الحديث التي ازدهرت في الغرب لا تزال في شكلها الطاغي مادية ، وان مدنيات العصور القديمة التي زهت في الشرق ادت رسالة روحية » كلام فيه غموض كثير ، واذا انعمنا فيه النظر فلا طائل تحته ، وهو من الآراء التي ابتذلت لكثرة ترديدها .

والآن فلندخل مع الدكتور زريق في معالجته قضية الفلسفة في البلاد العربية .

عندنا « الفلسفة لم تلد[1] بعد » (ص ١٨٦) وهذا صحيح اذا كان قصدنا بهذا القول تياراً او تيارات فلسفية بارزة واعية في البلاد ، وانتاجا غزيراً في التأليف الفلسفي .

وقد بتّ الدكتور اننا باشد حاجة الى الفلسفة . « ولهذا وجب علينا ان نوسع ونعمق ثقافتنا الفلسفية ما استطعنا شرط ان لا تبقى هذه الثقافة مجموعة معلومات خارجية عن المدارس الفلسفية والمذاهب الفكرية ، بل ان تتعدى ذلك فتصبح معرفة داخلية تجابه مشاكل الحياة العظمى ، وروحا

---

١) تولد . ولعله خطأ مطبعي .

تدفعنا الى التعمق في حقيقة الاشياء والنظر الى علاقاتها الكبرى ومشاكلها الرئيسية » (ص ١٨٨ - ١٨٩) « فان جوهر الفلسفة ان تحقق في ماهية الامور وان تنظر الى المسائل في دوائرها الكبرى » (ص ١٨٨) .

مرة اخرى نصادف « المعلومات الخارجية » و « المعرفة الداخلية » ! ولكن ما لنا ولها ، فقد عالجنا قضيتها . ورأيه في ضرورة الفلسفة على وجه عام لا يرد . فلنسائله الآن كيف ندرك هذه الفلسفة التي ننشدها .

خلاصة جوابه ان ندرس فلاسفة الغرب . وهو في موضع من كتابه يعرض لذكر اسماء كبيرة معينة : افلاطون وارسطو واغسطين واكويناس وديكارت وقانت وهيجل ونيتشه (ص ٥٠) . ولنلاحظ اننا لا نجد بين هؤلاء الفلاسفة واحداً يمثل المادية حق التمثيل . فهل هذا من غرائب اتفاق اللاوعي في « الوعي القومي » ؟ ولكن الاستاذ زريق لا ينسى ان يلحق بهؤلاء ايضاً « سواهم من قادة الفكر الذين فرضوا عقولهم على الغرب ووجهوا تياراته الفكرية وجهتها الخاصة » (ص ٥٠) وكأنه يستحي ان يذكر مثلا باكون وديدرو وفيورباخ ولوك الخ .

ولكن فلنساير الدكتور :

« في الفلسفة تجتمع شتى التيارات الفكرية والعاطفية

وتتجه كلها نحو هدف واحد في نسق واحد . وقد ظهرت في تاريخ الغرب عقول جبارة جمعت هذه التيارات ودفعتها موحدة في مجار غزيرة فاضت على الحياة الغربية فكيفتها ولونتها بالوان خاصة . وليس من شك في ان هذه العقول تختلف فيما بينها وان الوان فلسفتها يتباين بعضها عن بعض . وليس من شك ان المجاري التي تدفقت منها تباعدت وتنافرت احياناً كثيرة ، ولكن وراءها كلها اتفاقا جوهريا ووحدة روحية ومنبعاً اصلياً يمدها جميعاً . وهذا ما يجعل عامة الغربيين ينظرون الى العالم نظرات متشابهة ويقدرون قيم الحياة بمقادير متقاربة يختلفون بها عما سواهم من الشعوب التي لا تعيش في جوهم ولا تصدر عن فلسفتهم » (ص ٥٠) .

وفي هذه المقتطفة الطويلة سلكان من التفكير : الاول : ان فلسفة الغرب يختلف بعضها عن بعض ، وفلاسفته يختلفون فيما بينهم . والثاني : ان فلسفة الغرب يتفق بعضها مع بعض ، وفلاسفته يتفقون فيما بينهم . وكثير من كلام الدكتور مضطرب في سياقه كالقصبة تهزها الريح من يمين الى يسار ومن يسار الى يمين . وكأن الاستاذ خائف من مفاجأتنا بما يريد اقراره في ذهننا ، فهو يتوخى « لباقة علمية » . على انه ينتهي وقد ترك لنا ان في فلسفة الغرب وبين وفلاسفته اتفاقا جوهريا ووحدة روحية ومنبعاً اصلياً يمدها

جميعاً ، وهذا ما يحمل عامة الغربيين ينظرون الى العالم نظرات متشابهة ويقدرون قيم الحياة بمقادير متقاربة .

ونحن نسائل الدكتور : ما هو هذا الاتفاق الجوهري ؟ وأين هي هذه الوحدة الروحية ؟ وما المنبع الاصلي الذي يمدها جميعاً ؟

ان كان يعني بالمنبع الاصلي أنها جميعها تنبت في تربة المجتمعات الانسانية وتغتذي منها ، فرأي مقبول . على ان الاوضاع الاجتماعية تختلف انطباعاتها في افكار الناس ويختلف انفعال عواطفهم بها تبعاً لمراتب الناس في هذه الاوضاع . ولذلك نرى الاحوال الاجتماعية المتقاربة تصدر عنها فلسفات متباينة ، وليس ادل على ذلك من شتات مدارس التفكير والفلسفة في الغرب .

ثم نسأل الدكتور : كيف ينظر الغربيون الى العالم نظرات متشابهة ويقدرون قيم الحياة بمقادير متقاربة ؟ أيظهر ذلك بهذا التطاحن المبيد في ميادين البر واجواز الفضاء وعباب البحار وشوارع المدن وصفحات الجرائد والكتب وصرخات المذياع ؟

وبعد ، فالدكتور اذ يحضنا على دراسة فلسفة الغرب وفلاسفته يحذرنا من ان نقع في الخلط بين شيئين متمايزين ، فيقول : ان المعلومات الفلسفية شيء والفلسفة كنظرة عقلية

وهيئة نفسية شيء آخر ، وان فهم الفلسفة الغربية الذي ننشده هو تلك المعرفـة التي تخترق بها اذهاننا الى قلب التفكير الفلسفي وتلتهب بالروح الفلسفية المنبعثة منه (ص ٥٠ - ٥١).

وما من شك ان المعلومات الفلسفية المتفككة شيء والفلسفة المتماسكة شيء آخر . ولكن ما هي الفلسفة التي تنفرد عن سائر الفلسفات بانها نظرة عقليـة وهيئة نفسية ؟ اما « الهيئة النفسية » هذه فهي اخت « الهيئة الروحية » التي حدد بها الدكتور المعرفة في مكان آخر من كتابـه (ص ٢٤٧) وفيها تطرّف . واما النظرة العقليـة ، فكل فلسفة لا تخلو ان تكون نظرة عقلية !

ثم ان الدكتور ليهجبنا حقـاً حين يريد بفهم الفلسفة الغربية تلك المعرفة التي « تخترق بها اذهاننا الى قلب التفكير الفلسفي » وهكذا يكون فهـم الفلسفة بالاختراق الى قلب التفكير الفلسفي ! وكيف يكون الاختراق الى قلب التفكير الفلسفي ؟ بفهم الفلسفة !

وهنا فلنعد قليـلا الى وراء . المفهوم من حث الدكتور زريق لنا على الاحتفال بالفلسفة وتقدير اهميتها ان نجعل لنـا فلسفة نصدر عنها . وهو يريدها كفلسفة الغرب ، وراءهـا « اتفـاق جوهري » (غير معلوم) و « وحدة روحية » (غير معلومة ايضاً) و « منبع اصلي » (كذلك غير معلوم) .

ثم يقول للواحد منا :

« واذا كانت الفلسفة نصيبك اخترت لنفسك فريقاً من كبار المفكرين — او واحداً منهم — فعشت واياه ليل نهار تستمد من مؤلفاته آراءه وعقائده وتبثه مكنونات نفسك وعصارة فكرك وتربط حياتك بحياته وروحك بروحه في الجهاد الاقدس الذي تفرضه الفلسفة على صاحبها : الا وهو طلب الحق واستكشاف سر الوجود » (ص ١٩٠) .

على انا متى اخترنا لنفسنا هذا الفريق من كبار المفكرين او واحداً منهم ، و« ربطنا حياتنا بحياته وروحنا بروحه » ، فاي فلسفة وراءها « اتفاق جوهري » الخ ... تبقى لنا مع ما نعرفه من اختلاف الفلاسفة واختلافنا في الاختيار ؟ أم يعني الدكتور ان يختار لنا فريق من الفلاسفة او فيلسوف ويفرض علينا فرضاً ؟

والخلاصة ان الدكتور عدا انزلاقه في المغالطة لا يستند الا الى حدس نفسه حين ينسب الى فلسفة الغرب وفلاسفته ما يسميه اتفاقا جوهريا ، ووحدة روحية ، ومنبعاً اصلياً . والحق ان الاختلاف في الفلسفات انما هو ثمرة اوضاع اجتماعية متفاوتة في صميم الامة تنبت فيها هذه الفلسفات وتتأثر بها ، كما سبق لنا ان اشرنا . بل الواقع ان الاوضاع الاجتماعية وان انسلخت من التفاوت والنزاع ، فستظل انطباعاتها في

الاذهان وتأثيراتها في العواطف متباينة . وذلك خير ، اي خير ! لان افكار الناس وعواطفهم لو صبت قوالب واحدة لاصبح الكون لا يطاق ، ولاصبحنا بقطيع البقر اشبه ! والدكتور ، بعد ذلك كله ، يذكر ضرورة فلسفة للبلاد العربية ، ثم لا يكاد يقول شيئاً محدوداً عن ماهية هذه الفلسفة !

فيحق لنا ان نقول ، والحالة هذه ، ان « الوعي القومي » ليس فيه من الفلسفة الا كثرة ترديد هذا الاسم مقروناً بعموميات مرسلة ارسالا ومبهمات صوفية .

معنى الوعى القومى والرسالة القومية

كم يصر الدكتور زريق على وجوب فلسفة للبلاد العربية كفلسفة الغرب يكون وراءها « اتفاق جوهري » الخ . واشد من ذلك اصراره على رسالة قومية خاصة . ولكن قبل ان نعرف ما هي تلك الرسالة في نظره ، لا بد لنا من بحث رأيه في معنى الوعي القومي .

فلنقرأ :

« يقوم الوعي القومي على معرفة ماضي الامة ، وفهم العوامل الطبيعية والتاريخية التي كونتها وجعلتها في حالتها الحاضرة والكشف عن مصادر قواها الروحية الخاصة التي تمتاز بها عن غيرها من الامم » (ص ٣٧) .

هذه مقدمة عامة ، فلنقرأ تطبيقها على العربي الواعي قومياً :

« فالعربي الواعي قومياً يضع يده على اصل الجنس العربي . . . يسايره في سيادته على الاجناس الاخرى وامتزاجه بها وفي ما تكوّن من هذا الامتزاج من امة مختلطة الدم والجنس ، موحدة في الارتباط القومي . . . اللغة والتقاليد والجهاد الماضي والمصالح الحاضرة والمقبلة . وهو يعرف ما

يقوله العلماء الحديثون عن معنى « الجنس » وعن مقدار ما للوراثة من جهة والمحيط من جهة اخرى من اثر في تكوينه وعن نوع علاقته بالقومية ، وعن الحركات السياسية والمذاهب الاجتماعية والفكرية التي اثارتها مشاكل « الجنس » في الشرق والغرب .

« وينظر بعد الجنس في اللغة فيعرف من اين نشأت وكيف انتشرت ويفهم ميزاتها على غيرها من اللغات والقوى الخاصة التي جعلتها تسود . . . فلكل لغة نبوغ خاص . . . واللغة العربية قد اظهرت حيوية بالغة في دقة انتظامها وفي سعة انتشارها . . .

« والوعي القومي يتطلب ان يكون لنا فهم صحيح لجوهر الثقافة العربية . . . وما وراءها « من قوى روحية خاصة » و « يتطلب الوعي القومي الملتفت الى الماضي ان نلمس روح تاريخنا ونتصل بالعوامل التي كوّنت هذا التاريخ » . . . و « يهمنا بصورة خاصة ان ندرك القوى الداخلية الفاعلة في نفوس العرب وقلوبهم وارواحهم لان الظروف والاحوال الخارجية على اهميتها . . . ليست شيئاً ازاء القوى الداخلية » (ص ٣٧ - ٣٩) .

وهكذا فالعربي الواعي قومياً ينبغي له ان « يضع يده على اصل الجنس العربي » . أيعني الدكتور جدنا آدم مثلاً ،

أم سام ؟ وينبغي للعربي الواعي قومياً ان يعرف ما يقوله العلماء الحديثون عن معنى الجنس ؟ اي العلماء ؟ وعهدنا بالدكتور زريق لا يجهل ان مسألة الجنس هذه قد حمّلها بعض من يسمون انفسهم علماء وفلاسفة ما لا تحتمل من تفسير التاريخ وفهم احوال الاجتماع . وما معنى قوله الحركات السياسية والمذاهب الاجتماعية والفكرية التي اثارتها مشاكل « الجنس » في الشرق والغرب ؟ أيريد الدكتور ان نفهم بقوله ان مشاكل « الجنس » هي التي اثارت الحركات السياسية كالديموقراطية والدكتاتورية مثلا ، والمذاهب الاجتماعية والفكرية كالاشتراكية والفلسفة البراغماتية مثلا ؟ ان كان هذا قصده ، فهل ذاك هو « العلم » و « التفكير الواضح النير » و « التمحيص » الذي حدثنا عنه ؟

وبعد ، فالمفهوم من كلام الدكتور زريق ان العربي الواعي قومياً ينبغي له ان يكون عالم اجناس بشرية تقريباً ، ويستطيع تقدير اثر الوراثة والمحيط .

ثم ينبغي له ان يكون عالم لغة ، وبصيراً بشيء يقال له « نبوغ اللغة الخاص (١) » . وينبغي له ان يكون عالم ثقافة ،

---

١) ان « نبوغ اللغة الخاص » هذا مثل من تعابير الدكتور الغامضة . ولو قال تفوق اللغة الخاص لكان ما يعنيه اقرب متناولا ، وان يكن غير صحيح ، اذ ليس للغة تفوق خاص بها منقطع عن احوال القوم الذين

يفهم فيها صحيحاً شيئاً يقال له « جوهر الثقافة العربية » وشيئاً يسمى « القوى الروحية الخاصة » وراءه . وينبغي له ان يكون عالم تاريخ ايضاً يلمس شيئاً يدعى « روح تاريخنا » . وينبغي له ان يغوص الى « القوى الداخلية » الفاعلة في نفوس العرب ، ولا يكتفي بالظروف والاحوال الخارجية فهذه « ليست شيئاً » بازاء تلك .

ونحن اذا ضربنا صفحاً عن هذه الغوامض التي يشترط الدكتور زريق على العربي الواعي قومياً ان يعرفها رغم انها مواضع اخذ ورد لا ينتهيان — اجل اذا ضربنا صفحاً عن هذه الغوامض ، واقتصرنا على ما يكلفه معرفته من اشياء

يتكلمون بها — عن تطور قوى الانتاج لديهم وما يرافقها من علائق اقتصادية ، وما يساوق ذلك من اوضاع اجتماعية وسياسية ، ومستوى صاعد او هابط من الثقافة . وسيرة اللغة العربية نفسها مصداق ذلك ، فهي في دور البداوة مطبوعة بطابع المجتمع البدوي ووسائل الحياة فيه ، وعاداته وذهنيته . فلما ابحر العرب في العمران ، في الدور العباسي ، اتسمت اللغة العربية باتساع آفاق الحياة مادياً ومعنوياً حتى اصبحت اداة الثقافة الرئيسية في العالم . ثم لما تأخر العرب اخذت تضيق لغتنا حتى وجدناها على ما هي عليه من القصور في دور وعينا الاول هذا — قصور عن الاحاطة بمبتدعات العلم الحديث وما اثرته الحياة العقلية الحديثة في الامم المتقدمة . وظاهر انه لا يمكن رد تقدم اللغة العربية ابان الازدهار العربي ، او تأخرها فيما بعد ، الى « نبوغ او تفوق او قصور خاص » .

اخرى لوجدنا ان هـذا العربي الواعي قوميـاً ينبغي له ان يقضي ما شاء الله من عمره في الجامعات والمكاتب ، ولا يصبح واعياً قومياً الا قبيل الغفوة الاخيرة .

والدكتور زريق حريص على ان يقيس وعينا القومي بوعي الغربيين فيقول :

« الفرنسي الواعي قومياً يعرف بوضوح ودقة مزايا لغته ونبوغها الخاص ومقامها بين غيرها من اللغات . ومثله الالماني الذي ينشر امامك خصائص ثقافته والايادي التي لها على غيرها من الثقافات ، والانكليزي الذي يعرض لك تاريخ امته فيشير بفهم وادراك الى الدور العظيم الذي مثلتـه والى الروح التي تجلت فيها في مختلف الادوار » (٤٠ - ٤١) .

ومن هـذا القياس ينتج شططه في تقدير العربي الواعي قوميـاً . فكلامه عن الفرنسي والالماني والانكليزي لا يصح الا على اساتذة متخصصين ولعله على هؤلاء يبني حكمه . وكثيراً ما تكون هذه « الخصائص » و « الايادي » وهذا « الدور العظيم » دعاوى مبالغاً فيها .

غير اننا نستطيع انصافاً للدكتور ان نقول : انـه انما يرمي الى جعل البحث والدرس (بصورة عامة) اساساً للوعي القومي حتى ليحاول ايضاً ان يمس ببعض مقترحات معينة .

« اين نحن من البحث الحصيب في مواردنا الطبيعية

ومرافقنا الاقتصادية وطريق بعثها واستغلالها الى ما يكفل لنا عيشاً مكفياً وكياناً منيعاً » (ص ٢٦) .

اجل يحاول ان يدعو الى بعض اشياء « عملية » : البحث الخصيب في مواردنا الطبيعية ومرافقنا الاقتصادية وطريق بعثها واستغلالها . وكان الدكتور يظن ان بليتنا هي ابتعادنا عن « البحث الخصيب » في هذه القضايا ويضع « الغرب » نصب اعيننا . فالغرب ليس ما يحيط بنا من سيارات سريعة الجري وملاه باهرة النور وادوات عجيبة الصنع الخ . . . فوراء هذا جميعاً نظام اقتصادي متشابك خلقته الثورة الصناعية الحديثة يرمي الى استغلال موارد الطبيعة ومواهب الانسان وقابلية الآلة الحديثة في سبيل زيادة الانتاج وتنظيمه . فكلما زاد انتاج الامة وانتظم توافر غناها وفاضت ثروتها وتمكنت من ان تفرض نفسها على الامم الاخرى . . . ومهما قال الناس في اخطاء هذا النظام (النظام الاقتصادي الغربي) ومراكز ضعفه ، ومهما تذمروا من تضارب عناصره وتطاحن اجزائه ومما يجره على العالم من فوضى وارتباك ، فليس من شك في انه سيبقى في جوهره — اي في ما يرمي اليه من استغلال موارد الطبيعة واستخدام الآلة الى اقصى حد ممكن — النظام السائد في المستقبل . . . ولا سبيل للرجوع الى انظمة اقتصادية بسيطة فطرية .

ونحن اذا ادركنا النظام الاقتصادي الحديث على حقيقته وميزنا حسناته من سيئاتـه امكننا ان ندخله في حياتنـا على نور هذا الادراك والتمييز واستفدنا من اختبار الغرب الواسع فتجنبنـا ما اصاب الغرب منه من مضار وآلام وقطعنـا في سنوات ما توصل اليه الغرب في اجيال (٤٦ - ٤٧) .

والدكتور مصيب جداً حين يوصد الباب في وجه الذين يريدون الرجوع الى انظمة اقتصادية بسيطة فطرية . فارادتهم هـذه عبث . لان الانظمة « الاقتصادية البسيطة الفطريـة » تنشأ عن مستوى انتاج متأخر . وليس مع الانتاج الضخم القائم اليوم في العالم انظمة اقتصادية بسيطة فطرية .

ولكن الدكتور في كلامه لا يفرق على ما يظهر بين شيئين : النظام الاقتصادي من ناحية ، والوسائل (الآلات الصناعية خاصة) التي يجري بها الانتاج من ناحية اخرى .

وقوله عن النظام الاقتصادي الغربي « انه يرمي الى استغلال موارد الطبيعة ومواهب الانسان وقابلية الآلة الحديثة في سبيل زيادة الانتاج وتنظيمه » غير صحيح اليوم البتة . فهذا النظام مبذر في موارد الطبيعة ومواهب الانسان وقابلية الالة الحديثة والالة الحديثة نفسها ! والدكتور في كلامه يشعر القاريء انه يعي ذلك . وقوله « ان استغلال موارد الطبيعـة واستخدام الالة الى اقصى حد ممكن » (ولا اعلم لمـاذا نسي استغلال

مواهب الانسان ايضاً) هو ما سيبقى في المستقبل ، صحيح ، على ان هـذا ليس « جوهر » النظام الاقتصادي الغربي بل جوهر التقدم الانساني .

الا ان الغريب من الدكتور زريق ان يتصور اننا اذا « ادركنا النظام الاقتصادي الحديث على حقيقته وميزنا حسناته من سيئاته امكننا ان ندخله في حياتنا على نور هذا الادراك والتمييز الخ » .

واذن ، فكل مشكلتنا الاقتصادية تنحصر في « البحث الخصيب في مواردنا الطبيعية ومرافقنا الاقتصادية الخ » وفي ادراك النظام الاقتصادي الغربي وادخاله في حياتنا بعد عصره وتصفيته .

حقاً انه لتبسيط ساذج للمشكلة . وليأخذ الدكتور مثلا كتاب النظام الاقتصادي في سوريا للاستاذ سعيد حماده (السنة ١٩٣٦ ، بيروت) وليقرأ مقالي الاستاذين جورج حكيم [١] وألبر خوري فيه [٢] ، ولينعم النظر في بعض الوقائع والاحصاءات فيلمس الجهود التي يبذلها الانتاج الوطني والعقبات التي تحول بينه وبين الازدهار ، وهي طبعاً عقبات معينة غير قلة « البحث الخصيب » ، وعدم « ادراك النظام الاقتصادي الغربي » و « ضعف التنظيم » . هـل الدكتور جاد حين يزعم « ان

---

١) المقال الخامس عن الصناعة .

٢) المقال الرابع عن الزراعة .

ازمتنا الاقتصادية ناشئة عن اهمالنا هـذه الموارد » (موارد الثروة في بلادنا) ، (ص ٢١٨ و ٢٢٢) ؟ وهل هو جاد حقاً حين يزعم ان « بوسعنا ان نهتم بزراعتنا ونعنى بصناعتنا ونحافظ على تجارتنا فتقوى صناعتنا الداخلية حتى تصمد تجاه العوامل الاقتصادية الجبارة التي تهاجمنا من الغرب (ص ٢١٨) ؟ » أهو حقاً لا يعرف ان زراعتنا تشكو علق البقايا الاقطاعية الكثيرة ، وان فلاحنا ليس مكتوف اليدين ينتظر من يقول له « بوسعنا ان نهتم بزراعتنا » ، بوسعنا ان نستعمل السماد الكيماوي ، وهلم ؟ انه ينتظر السماد الكيماوي نفسه ، واشياء اخرى مادية غير النصائح !

لقد كان احرى بالدكتور ان يضع يده على العقبات المعينة التي تؤخذ بها صناعتنا وزراعتنا ، من ان يطلب « وضع اليد على اصل الجنس العربي » مثلا . كان جديراً به ان يتساءل : كيف تعيش صناعة وطنية ناشئة لا تستطيع اعتماداً على الاسواق العالمية ، اما السوق الداخلية فلها من يزاحمها ويضيق عليها الانفاس فيها ، عدا ان طاقة الجماهير على الاستهلاك يشلها الفقر . بل كان جديراً بالدكتور مثلا ان يذكر المعامل المصرية التي اقامها محمد علي باشا ويستنتج شيئاً من مصيرها .

ويمضي الدكتور عقب تساؤله عن بحثنا الخصيب في

مواردنا الطبيعية ومرافقنا الاقتصادية ، فيقول :

« اين نحن من التفكير الاجتماعي الرصين الذي يعالج ازمتنا الاخلاقية وتدني مستوانا الروحي في الاسرة والمدرسة والدولة ، بل في جميع منظمات مجتمعنا ؟ بل اين نحن من النظرة الادبية الصائبة التي تدرك مقام الادب الصحيح في نهضة الامم ، — الادب المستمد من الحياة المكيف للحياة — فتتجه اليه وتدفع صاحبها الى مجاهدة نفسه لانتاجه وتلقيح ابناء امته به ؟ وبكلمة وجيزة ، اين نحن من التفكير المنظم في اي من الاسس الحقيقية التي تشاد عليها النهضات القومية الثابتة ؟ » (ص ٢٦) .

ازمتنا الاخلاقية وتدني مستوانا الروحي في الاسرة والمدرسة والدولة ! والنظرة الادبية الصائبة التي . . . تدفع صاحبها من اجل انتاج الادب الصحيح الى مجاهدة نفسه . كذا مجاهدة نفسه ! القضية مجاهدة نفس وازمة اخلاقية وتدني مستوى روحي وهلم . رحم الله شوقي :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان همُ ذهبت اخلاقهم ذهبوا

ولست اريد ازدراء الاخلاق المتينة ولكني لا ارى طائلا في عرض القضية القومية على اعتبار انها قضية اخلاق . فهذا عرض سطحي ، ويمكننا ان نبقى الى ما شاء الله نرد مصيبتنا الى فقر الاخلاق وتدني المستوى الروحي وقلة مجاهدة النفس

فلا نقوم باكثر من وعظ يذهب هباء . والنصيحة سهلة والمشكل قبولها كما يفيد قول حكيم من اقوال الغزالي . ثم اني ، صراحة ، لا اوانا ممتازين امتيازاً خاصاً بالافات الاخلاقية !

الا ان الدكتور زريق مصرّ على «وجوب اخذ مفكرينا بهذا النوع من البحث والتقليد مع درس نهضات الامم الاخري وما رسمت لنفسها من غايات وما نهجت من سبل ، والنظر في مزايا الامة العربية وسجاياها الخاصة» (ص ٢٦ - ٢٧) .

نهضات الامم الاخرى ! اي الامم ؟ واي النهضات ؟ ولو قال : تحرر الامم الاخرى لكان اطبق ، على ان كلامه يبقي غامضاً لان الامم وان اشتركت في انها تطلب تحرراً مثلا ، فظروفها تختلف وجهادها يختلف . وعلى كل ، فقد كان من الضروري جداً ان يذكر امة من هذه الامم الاخرى لنعلم ما يعني .

وكم يزعج القارئ تلفيف الدكتور المسائل بهذه الغوامض : «مزايا» و «سجايا خاصة» . ولو قال ظروف الامة العربية داخلياً واوضاع العالم حولها وعلاقتها بهذه الاوضاع لكنا اقدر على لمس محتوى كلامه ، خصوصاً والدكتور لا يقول كلمة عن هذه «المزايا» و «السجايا الخاصة» . بلى !

« ليس من المعقول ان امة كهذه (العربية) لا تكون لها مزية معينة تنفرد بها » (ص ٥٤) وكفى الله المؤمنين القتال !

وما اسرع الدكتور الى الحديث عما يستطيع الوعي القومي صنعه من عجائب ، وهو لم يقل لنا الا اشياء اكثرها غوامض في ماهية هذا الوعي نفسه . يقول :

« وجملة القول ان الوعي القومي يزن الامور بموازينها الصحيحة » (ص ٤٤) موازين الامور الصحيحة ؟ ما هي ؟ غوامض اخرى .

« ان الوعي القومي لا يكتمل الا اذا تقدم من فهم ماضي الامة وادراك حاضرها الى تقدير مستقبلها وتصوير مصيرها » (ص ٥١) .

اما فهم ماضي الامة فقد علمنا اننا لا نحصل عليه ما لم نكن متخصصين في معرفة الجنس واللغة والتاريخ وهلم . واما حاضر الامة فهو متكون من تفاعل « روح الحضارة الغربية المتدفقة علينا » و « ادراك شخصية الامة الداخلية » (ص ٥١) . غوامض ايضاً . واما تقدير مستقبل الامة وتصوير مصيرها فيرتبط بشيء يقال له رسالتها .

« ان لكل امة من الامم رسالتها الخاصة تؤديها الى المجتمع الانساني » (ص ٧٧) ، « ان الغاية القصوى لاية امة من الامم انما هي رسالتها التي تؤديها هذه الامة للثقافة الانسانية.

والتمدن العام ... وما الاستقلال والوحدة في واقع الحال سوى وسائل لبلوغ هذه الغاية الاخيرة » (ص ٥٢) .

اما جعل الاستقلال والوحدة وسائل منذ الآن وهما لم يحصلا فأمر سابق لاوانه قليلا ! وقد كان احرى بنا ان ننظر في حصول الاستقلال والوحدة . ولكن يظهر ان الدكتور زريق لا يرى شيئاً مقدما على « الرسالة الخاصة » . فما هي ؟ صبراً ايها القارئ :

« وخليق بالامة العربية ان يكون لها رسالة رفيعة بين الامم . وخليق بكل عربي ان يشعر ان محيط امته الطبيعي وتاريخها الخاص قد اهلاها لمهمة لم تتوافر شروطها لاية امة اخرى . وان القوة المدبرة وراء هذا الكون قد اعدت العرب لامر لا يستطيع اي شعب آخر ان يقوم به دونهم . ذلك هو الشعور الذي يمتلك الالماني عندما يحدثك عن امته وعن مستقبلها . فجميع عناصر حياته ... تأتلف في صورة واحدة هي الرسالة التي حفظ القدر للامة الالمانيـة ، ولها وحدهـا ، امتياز تأديتها ، بل واجب هـذه التأدية . ومثل هذه العقيدة تملأ نفس الانكليزي الخ ... » (ص ٥٢ - ٥٣) .

كذا خليق بكل عربي ان يشعر ... ان القوة المدبرة وراء هذا الكون قد اعدت لامر ... كما يشعر الالماني ان

القدر قد حفظ للامة الالمانية رسالة ... كما يشعر الانكليزي ان الله مثلا قد الزم عنقه خدمة الانسانية !

حقاً ان ادخال « القوة المدبرة » و « القدر » والله هذه المداخل لامر مبتكر مستحدث ، (بل قديم ونحن نعرف كيف أستغل) ولكن عفواً ! قد لا يكون ادخال « القوة المدبرة » الخ . هذه المداخل مقصوداً قصد جد ، فالدكتور لا يطلب منا غير « شعور » بذلك هو « خليق » بنا !

وقد كنا ظننا حين دخل في الحديث عن الرسالة الخاصة انه انما عمد الى زي دارج من ازياء التعبير المستحدثة . فلقد اصبحت كلمة رسالة اسهل شيء مخرجا من السنتنا . فهذا الشاعر له رسالة ، وهذا المصور له رسالة ، ولمعلم المدرسة رسالة ، وللامة رسالة ... وخلنا الدكتور انما يعني برسالة الامة طلب حريتها اذا كانت مفقودة ودفع الغوائل عنها وسعيها الى انهاض مستوى جميع شعبها اقتصاديا وثقافياً وحرصها على ان تسلك ضمن المجموعة الانسانية سلوكا لا يتهضم غيرها ، ويزيد حسب مواهب الامة وامكاناتها في راحة العالم العامة .

ولكن الدكتور تنبض فيه عروق اخرى على ما يظهر من الامثال التي ضربها لنا ومن قوله : « ليست مصيبتنا حب السيطرة وفرض السلطان بل خور العزم وضعف الايمان » (ص ٥٣) « ونحن اذا فكرنا وشعرنا برسالة قومية كبرى

(فيها طبعاً حب السيطرة وفرض السلطان) اكتسب جهادنا في سبيل الحرية والاستقلال معنى جديداً (من حب السيطرة وفرض السلطان طبعاً) ... واستمددنا من هذه الغاية القصوى (وفيها السيطرة وحب السلطان) ... قوة مضاعفة وهمة مزدوجة لبلوغ الوحدة وتحقيق الاستقلال ! (ص ٥٣) .

وهذا هو وضع العربة امام الجواد كما يقول المثل الافرنجي ، بل هذا هو « طلب الابحار » يقوم به من يكاد يغرق في السواقي كما يقول اليازجي .

ولكن الدكتور لا يتفتل طويلا حول هذا الموضوع ، وينقلب الى النقطة التي يصر عليها اصراراً :

« ليس من المعقول ان امة كهذه (العربية) لا تكون لها مزية معينة منفردة ، وبد خاصة تسديها للتمدن البشري . اما اذا اردنا تحديد هذه الرسالة بالضبط ومعرفة ماهيتها الحقيقية فقد وجب علينا ان نقوم بدروس عميقة وتأملات بعيدة تتناول المحيط الطبيعي والاصول الجنسية (؟) والتطور الاجتماعي والتراث الثقافي، ونتعمق دون هذه المظاهر الى روح الامة وشخصيتها . ومن النقص الشائن ان قادتنا ومفكرينا لم يفكروا بعد بهذه المهمة الخطيرة في حياتنا القومية ولم يرسموا لنا رسالتنا الخاصة بصورة لا يشوبها غموض او ابهام »

« ص ٥٤) .

فلنر كيف يحاول الدكتور ان يتلافى هذا النقص الشائن :

« لعلنا لا نعدو الحق اذا قلنا ان عمل الامة العربية سيكون في المستقبل كما كان في الماضي : فكما ان العرب استطاعوا في العصور الغابرة ان يهضموا مدنيات اليونان والرومان والفرس والهند ، ويمتصوها بعقولهم النشيطة ونفوسهم الظمأى ثم يخرجوها الى العالم وحدة منسجمة غنية المادة باهرة اللون ، كذلك ستكون مهمة العرب في الاعصر الآتية ان يتشربوا علم الغرب ويجمعوا اليه العناصر المختلفة التي تنشأ في الغرب والشرق كرد فعل له ، ويؤلفوا بينها كلها في وحدة جديدة تكون عنوان الحياة المقبلة ويفيض بها العرب على العالم كما فاضوا عليه بمدنيتهم الباهرة في القرون الماضية » (ص ٥٥) .

كذا « ان عمل الامة العربية سيكون في المستقبل كما كان في الماضي » (ص ٥٤) . وجميع كلام الدكتور زريق مدهش في قصوره عن لمس اختلاف احوال العالم اليوم واحوال القرون المتوسطة التي نهض العرب في خلالها ، فقد كان الغرب متردياً في وهدة انحطاط عام . ولا يمكن العرب (في الاعصر الآتية) ان يمثلوا الدور الذي مثلوه اذ ذاك الا اذا انحط الغرب (في الاعصر الاتية) الى شبه قرون متوسطة

جديدة ! وكأني بالدكتور قد حار في انشاء رسالة خاصة للعرب ، فلم ير ايسر عليه بعد « دروس عميقة وتأملات بعيدة » من ان يتصور وقفة تقفها سيارة التاريخ الغربي او انزلاقة تزلقها فتتدهور الى « قرون وسطى » ثانية . اما العرب فيتشربون علم الغرب الخ . كما هضموا قديماً مدنيات اليونان الخ . ويفيضون بها على الغرب . . . ثم ينهض الغرب من جديد ونتأخر نحن ، وهكذا دواليك : مرة مني مرة منك !

وكأن الدكتور يرجع سريعاً الى نفسه ، ويرى تفاصيل الرسالة التي حاول ان يشرح شيئاً منها تتصاعد بخاراً امامه ، فيقول :

« سواء أكانت هذه رسالتنا الحقيقية ام لا ، فحسبنا ان نعتقد ان لنا رسالة ما ، وان نؤمن انها اعدت لنا واننا اعددنا لها » (ص ٥٥) .

ثم : « حسب قادة الفكر بيننا ان ينصرفوا لايضاح هذه الرسالة وتبيين هذه الغاية » (ص ٥٥) .

اية رسالة واية غاية ، يا دكتور ، وكل ما ثبتنا عليه اخيراً في كلامك هو : رسالة ان لنا رسالة ، وغاية ان لنا غاية !

وبعد الا يعرف الدكتور ان « قادة الفكر » (؟) اذا انصرفوا لايضاح هذه الرسالة فسيطلعون عليه فوراً بمائة

رسالة !

ولكن أليس للامة العربية رسالة ما ؟ بلى ، على ان كلمة رسالة تحمل معها فكرة شيء من الكماليات . واولى ان يقال ان للامة العربية حاجة . فما هي ؟ اظنك ايها القارئ تستطيع معي ومع الدكتور صبراً .

الامة ، قضية القوميات ، العرب اليوم

ولا بد لنا في كتاب عن « الوعي القومي » و « رسالتنا الخاصة » و « الامة العربية » ان نعرف ولو معرفة مجملة ما هي الامة في نظر المؤلف .

مرة اخرى نرجع الى تلك المقتطفة الطويلة عن « العربي الواعي قومياً » ، فنقرأ :

« فالعربي الواعي قومياً يضع يده على اصل الجنس العربي ... يسايره في سيادته على الاجناس الاخرى وامتزاجه بها وفي ما تكوّن من هذا الامتزاج من امة ، مختلطة الدم والجنس ، موحدة في الارتباط القومي ... اللغة والتقاليد والجهاد الماضي والمصالح الحاضرة والمقبلة » (ص ٣٧) .

ونقرأ في الصفحة (٣٩ - ٤٠) :

« ان الامة العربية لها شخصية خاصة تنفرد بها عما سواها من الامم : شخصية مؤلفة من عناصر مختلفة اهمها : اللغة والثقافة والتاريخ المشترك ، قد تحدرت جميعها من اصول الماضي . »

ثم نقرأ :

« ليس بامكاني في هـذا المجـال الضيق ان احيط بهذه الاسس التي تبنى عليها القومية ، اذ ان كلا منها يحتاج الى مقال خاص يشبعه بحثاً وتحليلا » (ص ١٠٧ - ١٠٨) .

والحق ان الدكتور زريق مستعجل دائمـاً في كتابه . وكم يعتذر مرة بضيق المجال وقلة الوقت حين يواجه مسائل اساسية كان ينتظر منه ان يقول فيها كلمته عن روية ودرس . ولهذا نستشعر في الكتاب لهجة استاذ يكلف تلاميذه انشاء اطروحة . (يستعير لهؤلاء « التلاميذ » اسم « قادة الفكر في البلاد العربية » مثلا) (ص ٨) .

والدكتور يوافقني طبعاً على ان تعريف الامة من مسائلنا الاساسية . ويوافقني ايضاً على انه لم يفكر في هذا التعريف « تفكيراً واضحاً نيراً » . فنسي عنصراً رئيسياً من عناصر القومية ، بل اول عناصرها : الارض المشتركة . وقد يلوح هذا بديهياً ولكن فلنقرأ :

« لا نكران ... انه كان للتربية البيتية اثر بيّن في حفظ العنصر اليهودي وبعث القومية اليهودية بعد ان تفرق اليهود في انحاء المعمور » (ص ٩٢) .

ونحن هنا لا نناقشه في قيمة « الاثر البين » الذي كان « للتربيـة البيتيـة » في حفظ العنصر اليهودي ازاء عوامـل اخرى اشد اهمية كيفت التربية البيتية نفسها . ولكننا نسائله

عن هـذا البعث للقومية اليهودية ؟ أصحيح ان هناك قوميـة يهودية وبعثاً لها ؟ لست اقول ما اقول مدفوعاً بتعصب زري على الشعب اليهودي . الا اني اقر واقعاً هو ان اليهود ليس لهم قومية حتى تبعث اولا ، لانهم لا يملكون ارضاً مشتركة ، وان تكن هناك حركة معروفـة تستفيد من حركات تسوق لها اليهود فتحاول حشدهم في ارض مشتركة معينة باسم قومية يهودية ، ولمآرب اخرى .

ثم يغفل الدكتور عن ان يذكر لنا العنصر الاقتصادي في تكوين القومية رغم انه يقول :

« القومية بمعناها الصحيح انما هي وليدة العصر الحديث وما تمخض بـه من قوى سياسية واقتصادية واجتماعية (ص ١٣٠) .

وقوله صحيح ، على انه لا يخلص منه الى نتيجته المنطقية . حقاً ان القوميات الحديثة لم تظهر هـذا الظهور وتتميز هـذا التميز الا بفعل القوى الاقتصادية منذ الثورة الصناعية : الا بتقدم وسائل الانتاج وتعاظم الانتاج نفسه ، وبتوزع العمل في الانتاج الوطني بين مناطق البلاد كل منطقة حسب مؤهلاتها وربط كل فرع من فروع الانتاج الوطني بغيره اوثق ربط ، مع ما رافق ذلك ضرورة من تسهيل طرق النقل والمواصلات التي قربت الابعاد بين مختلف المناطق . وذلك كله اعان على

تعجيل وحدة الثقافة والعادات وخلق الشعور الشامل بـ « الوطن » و « الامة » .

ولكن قبل الثورة الصناعية ، في عهد الاقطاع ، كانت مناطق البلاد الواحدة بعضها معزول عن بعض . بل كانت مزارعها ومدنها ، او قراها الكبيرة ، تكاد تستقل كل واحدة منها بانتاج القدر الاعظم مما تحتاجه في حياتها البسيطة انتاجاً زراعياً بوسائل متأخرة ، او انتاجاً صناعياً ضئيلا بادوات بسيطة يقوم به محترفون في حوانيتهم الصغيرة . فلم تكن ، والحالة هذه ، تجري المعاملات المستمرة بين كل منطقة ومنطقة من البلاد . ولم تكن تربط البلاد شبكة من طرق المواصلات فكانت العلائق والمخالطة الثقافية كالمعدومة ، وكان الشعور بالوطن او الامة جد ضعيف . وعلى هذا فالقومية بمعناها الصحيح نهضت على انقاض الاقطاع .

ولو ان الدكتور تأمل في شيء من هذا ، لاستطاع وضع يده على امور اقتصادية في قلب المجتمع العربي لا يمكن القومية العربية ان تعيش وتنمو معها مهما نكن بلغاء في الوعظ ضد الانانية والاهمال الخ ...

الا ان الدكتور يفوته النظر في الاجزاء التي يتركب منها المجتمع العربي وفي علائق بعضها ببعض ، وفي الاجزاء التي تدعم القومية منها . ولذلك فهو يحدثنا بكل غموض

وبساطة عن « المصالح الحاضرة والمقبلة » (ص ٣٧) .

فما يعني بالمصالح الحاضرة والمقبلة ؟ وهل يجوز لنا ان نفهم من كلامه ان المصالح اذا تضاربت بين مختلف الجماعات في امة ما ، فقد انقطعت تلك الامة عن ان تكون امة ؟ والواقع ان هذا التضارب حاصل . ومرة اخرى يلتفت بنا الاستاذ زريق الى الغرب فيشاهد ما ليس موجوداً بالفعل ويضرب لنا مثلا :

« أرأيتم الى هذه الامم المنظمة في الغرب وهي تنطق بلسان واحد وتسير في صف واحد وتخضع بجسدها وعقلها لفكرة واحدة » (ص ٢٤٤) .

طبعاً ان الغربي الذي تتصل حياته بالانتاج الصناعي وما يفرضه من دقة وتقدير للوقت يحافظ على مواعيده اكثر منا . وطبعاً ان القطر ينبغي لها ان تسير في اوقات معينة كي لا يقع اختلال وتشويش ، والعمال يدخلون المعامل للشغل حين تصفر الصافرة ، والجيوش تمشي في صف ونسق مضبوط ، وهلم ... ولكن الدكتور واهم جداً ان كان يعتقد ان هذه الامم التي يعنيها ليس في قلب كل منها تضارب مصالح عنيف . وانا واثق من ان الدكتور بين كل المخطوطات والكتب القديمة والمجلات « العلمية » التي يقرأها لم ير قط صورة معسكر من معسكر الاعتقالات مثلا !

ينتج من هذا انَّنا في نظرنا العلمي الصحيح الى الامة ينبغي لنا ان لا نتحدث عن « مصالح حاضرة ومقبلة » شاملة عامة ، بل عن مصالح تشترك فيها اكثرية الامة في دور معين من ادوارها . وينبغي لنا ان لا نخدع انفسنا فلا نرى اكيداً مَن تتضارب مصالحهم والمصالح التي تشترك فيها الاكثرية .

ولما كانت هذه مسائل لم يفطن لها الدكتور زريق فنحن نسمعه يقول عندما يعالج قضية الاحزاب السياسية :

« ونحن لا نريد الآن ان نتطرق الى البحث فيما اذا كان من الافضل لمصلحة الامة ان يكون كلها حزبا واحداً او ان تبقى فيها حرية الاحزاب . فهذا بحث طويل عسير لا يتسع له المجال » (ص ٨٨) .

والذي يستخلصه القارئ من هذا الكلام اننا لو اردنا الآن ان نتطرق الى هذا « البحث الطويل العسير » ولو « اتسع له مجال الدكتور » ، (هو دائماً مستعجل !) لاستطعنا ان نبت في المسألة ، فقررنا مثلا « الحزب الواحد » او « الاحزاب المتعددة » وكأن الدكتور لا يعرف ان الامة ما دامت متعددة الفئات الاجتماعية ، واوضاع هذه الفئات فيها مختلفة ، فمحتوم ان تتعدد احزابها والامر لا يتوقف على قرار منا . ولكن لعل الدكتور يعني بالحزب الواحد

حزبا واحداً علنياً ، وما سواه مفروض عليه الخفاء .

والنتيجة ان الدكتور حين يريد الامة « جيشاً مجنداً يعمل كل فرد منه في ناحية من نواحي الحياة القومية ويبذل نفسه بصدق واخلاص » (ص ٢١١) غير واقعي . وهو يقيس على بعض الاخبار والرسوم في الامم ، التربية التي يكرز علينا باسمها ، « والظواهر قد تكون لها بواطن خفيت عنا » كما يقول (ص ٢٤٦) .

والنتيجة ايضاً ان الامة العربية في دورها الحاضر منتظر ان تكون فيها التقصيرات والمشادات التي يراها الدكتور فيولول كأرميا او يصخب كأشعيا ويبذر النصائح في الريح . وتوقع زوال هذه التقصيرات والمشادات « بجهاد النفس — الجهاد الاكبر » لنصبح « عندها لا خوف علينا في جهادنا الاصغر للحرية والاستقلال » (ص ٢٥٨) انما هو « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء » .

على ان تفكير الدكتور بقومية متلاحمة لا اثر لتضارب المصالح في صميمها ليس سرابا ولا خيالا . وسير التواريخ يعد به وعداً اكيداً . غير اننا ، ونحن في الحاضر نعالج واقع القضية القومية العربية ، لسنا بصدد ذلك مباشرة .

وبعد ، فلنقف قليلا لنحيط بما هي الامة .

الامة قبل كل شيء جماعة بشرية عاش (ويعيش) بعضها

مع بعض امداً طويلا ، فهي قد تألفت بسير التاريخ ، يشد كيانها اللغة والارض المشتركة والحياة الاقتصادية وثقافة وعادات وتقاليد .

والواقع ان الدكتور زريق قد ألمّ ببعض جزئيات هذا التحديد ، الا انه نسي عناصر منه وزاد عناصر ليست منه كما رأينا .

ويهمنا هنا بالاضافة الى ما قلناه سابقاً عن نظرة الدكتور الى الامة ان ننبه الى ان وضع الدين او الجنس موضع الاهمية في مسألة القومية لا يستند الى اساس علمي . فقد يؤلف ابناء دين او جنس امماً مختلفة ، بل قد تتألف من ابناء اديان واجناس امة . والدكتور موفق في فصله عن القومية والدين اذا اعتبرنا حراجة الموضوع وطريقته العامة في حب « تنعيم النواتئ » . وهو موفق ايضاً حين يقول عن الامة العربية « مختلطة الدم والجنس » (ص ٣٧) ولكنه رغم حسن النية لم يكن موفقاً حين انجرّ الى مناقشة « المتفينقين » المتفيهقين في لبنان على اساس الجنس (فصل : القومية والجنس) . فقضية الامة ليست قضية اصل جنسي ، بل انها، بصورة عامة ، قضية سير تاريخي وظروف ونتائج وموجبات تاريخية .

وحبذا لو تغلبت علينا « العقلية التاريخية » التي يخشى

الدكتور تغلبها (ص ١٠٨) وهو انما يعني بها الالتفات الى وراء مع ان العقلية التاريخية الصحيحة تفكر في " الماضي والحاضر والمستقبل . ولو كانت لنا عقلية تاريخية صحيحة لعرفنا ان القضايا لا تتم حسب ما قد يرغب فيه نفر من المتفذلكين " .

يقول الدكتور :

« عندها (اي : عند توجهنا الى المستقبل وهذا في رأي الدكتور لا يدخل في العقلية التاريخية !) لا يكتفي اللبناني بان يسأل نفسه : ما هي اللغة التي ورثتها عن اجدادي : الفينيقية ام العربية ؟ بل يزيد بالحاح : ما هي اللغة التي اريد ويهمني ان اتكلم بها واتخذها اداة لحضارتي الان وفي المستقبل الخ (ص ١٠٨ - ١٠٩) .

كأن القضية مجرد رغبة فقط . لا رغبة « اللبناني » بوجه عام بل رغبة شاعر او معلم مدرسة او تلميذ ، وهم الذين يمكن ان يعنيهم الدكتور بقوله اللبناني ، اذ ان اللبنانيين بالوف فلاحيهم وعمالهم وسائر جماهيرهم اعقل من ان يطرحوا على بساط البحث مسألة العربية والفينيقية ويطلبوا التصويت لاحداها !

اجل ليست القضية قضية رغبة فقط لا في مسألة العربية والفينيقية ، ولا في المسائل الاخرى التي يذكرها الدكتور في بقية قطعته (ص ١٠٩) . فلبنان لا يكون فينيقياً ولو

نظمنا مليون قصيدة (بالعربية خذ بالك ايها القارئ) نريد ان « نفينقه » بها . وما نفعل بكل السير التاريخي والظروف والنتائج والموجبات التاريخية التي مرت وتمر بلبنان منذ عهد الفينيقيين ؟

ولكن فلننزع الان الى ما هو اكثر جداً .

سبق لنا ان قلنا : من الاصح ، ومن العملي ، ان نتحدث عن حاجة الامة العربية لا « رسالتها » ، وان نلمس المصالح التي تشترك فيها اكثرية الامة في دور معين من ادوارها .

فما هو الدور الذي تجوزه الامة العربيـة اليوم ؟ ما هي حياتها الحاضرة ؟

يجيب الدكتور :

« هـذه الحياة الحاضرة وليدة عاملين رئيسيين يتفاعلان فيما بينهما تفاعلا شديداً هما : الشخصية العربيـة كما تكونت عن محيط هـذه البلاد الطبيعي وميراثها الاجتماعي والثقـافي والحضارة الغربية السائدة على المجتمع الحديث (ص ٤١) .

فهل يعني المؤلف بتعبير بسيط ان للعرب اليوم قوى نامية تعمل على تطوير انتاجهم الاقتصادي والفكري وتوسيعه ، فيظهر ذلك في مطامح سياسية لهم ، وان هناك قوى خارجية (وداخلية) تتصدى لهذا التطور ، وان حياة العرب الحاضرة انما هي مشادة عنيفة بين هذه القوى ؟ ان كان يعني ذلك

فهو مصيب كبد الحقيقة ، على انه يتكلم بغوامض (والشاطر يفهم) .

ولكننا اذا تابعناه وجدناه لا يعني ذلك قط . فهو يقول :

« وسواء أاردنا ام لم نرد فالغرب محيط بنا من جميع جوانبنا آخذ علينا كل سبيل من سبل حياتنا ، وسواء أشئنا ام لم نشأ فهذا العنصر المندفع بقوة لا تقدر سوف يفرض نفسه علينا ويعمل في تكوين مستقبلنا . فحري بنا اذن ان نفهمه حق فهمه وندرك كنهه ونعرف ماهيته كي نحسن مجابهته ويكون اتصال روحنا بروحه على نور وهدى وبصيرة ، لا بفعل الصدف الطارئة والاحوال المسيرة » (ص ٤٥) .

والذي يجوز ان نفهمه من حديثه عن هذا الغرب « المحيط بنا من جميع جوانبنا » هو ما نسميه الثقافة الغربية او التقاليد او روح الغرب كما يحب الدكتور ان يقول ، وهلم . . . والا فغير معقول ان يعني الدكتور بالغرب المحيط بنا من جميع جوانبنا سلطانه السياسي المبسوط علينا . ثم يقول : « سواء أشئنا ام لم نشأ فهذا العنصر المندفع بقوة لا تقدر سوف يفرض نفسه علينا » فيكون بذلك قد صفق في وجهنا باب الحرية والاستقلال !

وهكذا فحياتنا الحاضرة في نظر الدكتور « تفاعل » بين ثقافتنا وثقافة الغرب ، بين روحنا مثلا وروح الغرب ! اما

المشكلة السياسية فهي خط نحيف جداً في اللوحة التي يرسمها الدكتور من حياتنا .

علينا فوق كل شيء ان « نفهم الغرب حق فهمه وندرك كنهه الخ ... فنتصل روحنا بروحه على نور وهدى وبصيرة ! » وبكلام ادق ، علينا ، مثلا ، كما يقول الدكتور ان « ندرك النظام الاقتصادي الحديث (اي : الغربي) على حقيقته ونميز حسناته من سيئاته » ونطبق « النور والهدى والبصيرة » ، « فيمكننا ان ندخل النظام الاقتصادي الحديث في حياتنا ونستفيد من اختبار الغرب الواسع فنجتنب ما اصابه منه من مضار وآلام » (ص ٤٧) .

ولعن الله السياسة ! « ان هذا الوعي القومي لا يمت بصلة الى هذا الاهتمام الفائر بالسياسات المحلية الذي طغى علينا وافسد حياتنا بل هو ارفع منه واسمى ، وبقدر ما يمتلك النفس ويسود العقل يخف هذا الهيجان الذي نتخبط فيه وتهدأ الحمى التي تثور في جسمنا وننظر الى الامور نظرة قومية كبرى لا نظرة محلية ضيقة » (ص ٥٦) . وهذا كلام خياليّ لا يعرف ان « الاهتمام الفائر بالسياسات المحلية » هو الذي يخرج الناس من اصداف العزلة الى الاهتمام بدائرة من الحياة العامة ان تكن ضيقة اول الامر ، فانها تتسع بالاختبار والاستمرار وتدفع قسماً فقسماً من الناس الى تلمس اسباب

العلل وعلاجاتها البعيدة . ولكن عفواً ! كان يجب ان نفهم من تحديد الدكتور للعربي الواعي قومياً انـه لا بد له ان يتخصص بالجنس واللغة والتاريخ اولا حتى « ينظر الى الامور نظرة قومية كبرى ! »

وكم يسارع الدكتور الى القول :

« انني أعني بالقومية شيئاً اعظم من السياسة واوسع . فما السياسة الا ناحية ضيقة من نواحيها ولون محدود من الوانها ، لان القومية تشمل الحياة باوسع معانيها وتستهدف الامة بجميع احوالها وترمي لا الى اكتساب حرية الامة وتوسيع نفوذهـا السياسي فحسب ، بل الى انماء قواها الروحية ورفع مستواها الاجتماعي والعقلي والسير بها الى ابعد ما يكون من طريق الحياة المثلى » (ص ٧٦) .

وما لنا وللعمل السياسي ، فلدينا اشياء كثيرة تقوم مقامه مثلا :

« فلربما ابتسامة ناعمة احيت نفساً ورفعتها من وهدتها ، ولرب دمعة رقيقة بدد صفاؤها ظلمات الشقاء الكثيفة ، ولرب نظرة محيية نشرت الامل بعد اليأس والهناء بعد البؤس ، فاذا انتظمت هذه العاطفة الحساسة وترادفت مجاري هذا الغنى الروحاني في ما تنظمه المرأة من جمعيات خيرية واصلاحيـة ، تدفق البر والاحسان وفاض الحب والحنان وكان منها للامة

الخير العميم والنفع الجزيل . ولعمري ان في هذا لخدمة قومية جزيلة لا يدانيها العمل السياسي او السعي المادي » (ص ٧٠) .

كذا : جمعيات اصلاحية ! نظرة محيية ! ابتسامة ناعمة حتى دمعة رقيقة ! — كل تلك فيها خدمة قومية جزيلة لا يدانيها العمل السياسي او السعي المادي . ولكن تفكير الدكتور حقاً اوزن من هذا . فهو لا يلبث ان يدرك دور العمل السياسي في تحرير القوميات ، فاذا « الجمعيات القومية تكمل عمل الاحزاب السياسية » (ص ٨٩) ثم يعد نسقاً من هذه الجمعيات : الكشاف ، الجمعيات النسائية ، جمعيات الاحسان ، مؤسسات التهذيب ، جمعيات التشجير والتحريج وانعاش القرية وحفظ الآثار والعاديات وترقية الآداب والعلوم (ص ٨٩ - ٩٠) .

وفي الصفحة (٢٠٣) يقول : « الجهاد الثقافي لا يمكن ان ينفصل عن الجهاد السياسي لتحرير البلاد وتقوية سلطانها » .

على ان جهادنا للحرية والاستقلال يبقى « الجهاد الاصغر » . اما « الجهاد الاكبر » فهو جهاد النفس ، وبهذه الحكمة الاخيرة ينتهي الكتاب (ص ٢٥٨) .

وابسط البسائط عن القومية العربية اليوم انها في دور نموها ، وان حاجتها هي الحرية والاستقلال . وتلك هي الحاجة

او المصلحة التي تشترك فيها اكثرية العرب .

ولكن المؤلف مرتبك حتى في الحديث عن ابسط البسائط هذه . فتارة : « لقد بدأت الامة العربية تمشي في طريق الحرية والاستقلال » (ص ٧٥) ، وطوراً : « الآن وقد نالت الامة العربية قسطاً من استقلالها واستعادت بعض حريتها الخ » (ص ٨٠) .

وهكذا فنحن تارة قد بدأنا نمشي في طريق الحرية والاستقلال ، وطوراً نحن قد نلنا قسطاً من استقلالنا وحريتنا ! ولئن كان الدكتور يعني بكلام قطراً عربياً ثم يعني بالكلام الآخر قطراً ثانياً ، فلا ادري لماذا لا يصرح ، اذ ان الاقطار العربية ، وان تكن كلها ليست حرة مستقلة ، فانها ليست جميعاً على مستوى واحد من التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري .

ولما كان الدكتور مرتبكا ، كما قلت ، في مسألة الحرية والاستقلال فهو لم يذكرها الا عرضاً ، واحياناً بصفتها مشكلة ثانوية ، مع ان الضرورة تقضي ان تكون هي محور البحث في كتاب عن الوعي القومي عندنا .

ولما كان لم يثر هذه المسألة جديا ، فقد ظهرت عليه علائم الحيرة في « توظيف » المرأة العربية في وعيه القومي ، فمنحها وظيفة « صب اكسير المحبة والحنان » على العلل والادواء ،

« فتزيلها او تخفف — على الاقل — من وطأتها » (كالافيون مثلا) بابتسامة ناعمة ، بدمعة رقيقة ، بنظرة محيية الخ ، (ص ٧٠) .

يقول :

« فما كانت المشكلة السياسية والازمة الاقتصادية لتوازيا جزءاً من هذه المعضلة الروحية ، وما كانت اي منها لتتعقد وتستعصي لولا هذه الازمة الداخلية التي تفسخ جسم الامة وتضعضع قواها : لولا ... لولا ... بكلمة واحدة لولا هذا الضعف الروحي الذي هيئت المرأة بطبيعتها ومزاجها لازالته والتغلب عليه . فما احوجنا اذن الى هذه النفحة العلوية تنفخها المرأة في كياننا فتحيينا ... الخ » (ص ٧٢) .

ذلك بعد ان يكون قد قال عن نسائنا :

« غالباً ما تستهويهن اباطيل المادة الزائلة : من ترف في المأكل والملبس والمسكن ، ومن رغبة في الظهور وتهالك على التقليد » (ص ٦٧) .

وقال عن رجالنا : ان اكثرهم ينحطون الى « التكالب على الوظيفة والدس والمراوغة والمناورات الحزبية الهدامة » (ص ٦٩) .

وفي هذا مغالطة مضحكة ، فنساؤنا اللواتي يحملهن « واجباً اسمى » و « رسالة رفيعة » كما يقول (ص ٧٢) ،

لسن خيراً من رجالنا ، فكيف ينفخن اذن « نفحة علوية في كياننا فيحييننا » ؟ لقد سمعنا بموتى يدفنون موتى على لسان السيد المسيح . اما بموتى يحيون موتى فلم نسمع ! والواقع ان الدكتور ، حين يرمي نساءنا ورجالنا بتلك العاهات ، لا يذهب بنظره الى ابعد من رجال ونساء فئات معينة : المثقفين الناعمين والاغنياء المترفين ! ولو هو قد ذهب بنظره الى ابعد من ذلك لما قسا قسوته على رجالنا او نسائنا ، ولعرف للمرأة دوراً غير « صب اكسير المحبة والحنان » والتأثير الروحي على الرجل الذي يبقى هو الشخص الاسامي في كلامه ، وكأن المرأة عكاز له . اجل ، لعرف للمرأة دورها الى جانب الرجل مساوية له ، بل انشط وانفذ منه في بعض ميادين الجهاد .

وبعد فما حديث الوحدة العربية الذي وعدنا به ؟ ينعي الدكتور زريق على الدكتور طه حسين « اضطرابه الشديد في فهم « الوحدة » و « الحلف » والتمييز بينهما » (ص ٢٤) ، فيقول :

« كيف يمكن وحدة ان تحتفظ « بالقوميات » وتقوم على « الحلف » ، في حين انها تتناول جوهر الامة الواحدة وتنبعث من مميزاتها الخاصة وقوميتها الثابتة ، ولا تكتفي بروابط الحلف الخاضعة في الاكثر لتقلبات الاحداث والمصالح

والظروف السياسية وسواها » (ص ٢٤ - ٢٥) . وهذا حلم نظري يريدنا الدكتور زريق ان نطبقه على القضية العربية. والمشموم من كلامه انه يؤثر « الوحدة » على « الحلف » . وفي مكان آخر يرد ازمتنا الاقتصادية (نلاحظ ان الدكتور يربط ازمتنا في امكنة مختلفة باسباب مختلفة !) الى ان « بلادنا هذه ضيقة الحدود محصورة الجوانب والاطراف قد احيطت بالحواجز والسدود الاصطناعية ، فضيقت مجال العمل وقيدت قوى الانتاج » (ص ٢١٩) بحيث تضاءلت العلائق الاقتصادية بين الاقطار العربية . وبهذا نكاد نتيقن من ان الدكتور يؤثر « الوحدة » على « الحلف » . ولكنه لا يعين مدلول « الوحدة » ولا « الحلف » ، وانه لامر اساسي جداً قد يمضي البحث بدونه هباء .

على ان ارجاع ازمتنا و « ضيق مجال العمل » و « تقييد الانتاج » الى « ضيق الحدود » و « انحصار الجوانب » لا يجابه المشكلة العظمى الاساسية وهي : بلية التأخر الاقطاعي وتلك التي يسميها الدكتور « العوامل الاقتصادية الجبارة » (ص ٢١٨) . ومهما بلغ من رغبتنا في « وحدة » عاجلة ، فالامر المهم ليس رغبتنا بصفتنا نفراً من المعلمين او المفكرين والعاطفيين القلائل ، ففي خارطة الشرق الادنى اقطار عربية بعضها الان منفصل عن بعض . وبينها تفاوت محسوس سياسي

واقتصادي واجتماعي وفكري . وتضارب الآراء شديد حول الوحدة وشكلها بحيث لا تكاد تثار حتى يمور زبد من الجدل يذهب جفاء . على ان هناك امراً واحداً اساسياً تشترك فيه هذه الاقطار العربية وتطمح اليه اكثرية سكانها هو حاجة كل منها الى الحرية والاستقلال الصحيحين .

وانا غير مستيقن مما يعني الدكتور زريق او طه حسين بالحلف ، ولكني متأكد من ان الاقطار العربية تستطيع ، وذلك ضروري ، ان تجعل مسألة حريتها واستقلالها اولى المسائل ، وان تتضامن رغم ظروف الانفصال والتفاوت الواقع بينها . ويقول آخر : ان الوحدة حتى الحلف ايضاً ، لا تصير مسألة مبسوطة للبحث العملي (لا للجدل !) الا بعد ان تحرر الاقطار العربية او نواة كبيرة منها .

ثم ما الوحدة التي نتحدث عنها مع فقدان الحرية والاستقلال ؟ قد يجوز ان تسطو على البلاد العربية كلها دولة واحدة فتحزمنا جميعاً في حزمة واحدة بقيودها وسلاسلها ، وتسمي لنا تلك وحدة . الحق ان الوحدة والحلف اذا امكن تلفيق شكل منهما ، بلا حرية واستقلال ، كلاهما يبقى « خاضعاً لتقلبات الاحداث والمصالح والظروف السياسية وسواها . . . »

ولكن ماذا نعني بالحرية والاستقلال الصحيحين ؟ يقول

الدكتور :

« ان غاية النهضة القومية هي رفع مستوى الحياة العربية بجميع نواحيها ، فهي لا تقتصر على نيل الحرية الخارجية والاستقلال السياسي ، بل ترمي الى ابعد من هذا بكثير : الى تحرير افراد الامة من القيود الداخلية ، الى توفير اكبر قسط من السعادة والهناء لهم جميعاً ، الى كمال حياتهم الجسدية والعقلية والروحية » (ص ١١٥) .

وربما كانت هذه القطعة خير ما صدر عن وعي صحيح في كتاب « الوعي القومي » كله . هذا اذا سمح لنا الدكتور ان نفهم بـ « الحرية الخارجية » و « القيود الداخلية » غير فهمه الصوفي . فيكون معنى الحرية والاستقلال الصحيحين ان تنعتق الامة من السيطرة المفروضة عليها من خارج ، وتقتلع من صفوفها الاوتاد الداخلية التي تُشد بها اطناب تلك السيطرة ، وتعمل على رفع مستوى حياتها بجميع نواحيها من جسدية وعقلية وروحية كما يقول الدكتور . وبتعبير اجسر : ان ما نشاهده مثلا من بقايا الاقطاع الكثيرة (حتى البداوة ايضاً) في البلاد العربية وفقر اليد المنتجة والامية الفاشية وبطالة الشباب المثقف الخ ، ينافي النهضة القومية والاستقلال والحرية الصحيحة .

والامة العربية ، كشكل امة ، هي اولا وآخراً اكثرية

الشعب العربي — اكثريته ذات اليد الصانعة المنتجة . يقول الشاعر جبران :

« لبناني هو الفلاحون الذين يحولون الوعر الى حدائق وبساتين ، والرعاة الذين يقودون قطعانهم من واد الى واد ، والكرامون الذين يعصرون العنب خمراً ويعقدون الخمر دبساً ، والرجال الذين يربون التوت ، والنساء اللواتي يغزلن الحرير ، والازواج الذين يحصدون الزرع ، والزوجات اللواتي يجمعنه اغماراً ، والبناؤون والحائكون وصانعو الاجراس والنواقيس ، وشعراء الفطرة الذين ينشدون « العتابا » و « المعنّى » و « الزجل » . وشعراء الفصيح الذين يسكبون ارواحهم في كؤوس جديدة . ان لبناني يتجلى في اغنية جامعة البقول بين هضبات لبنان وبين مناكب تلاله واحراجه » . (من قصيدته : لكم لبنانكم ولي لبناني) .

وقلّ في الادب العربي صورة للوطن كهذه الصورة شعرية ، صحيحة ايضاً ، ترسم ابرز ما في الوطن واهم من فيه : العاملين المنتجين . وكأن الدكتور زريق في كتابه بوجه عام ، يسهو عن هذه الحقيقة . فالفلاح مثلا ...

« يعطف احدنا على الفلاح » (ص ١١٦) شكراً على التواضع وطيب القلب ! واحدنا يعطف على الفلاح « لانه فلاح عربي » (ص ١١٦) لا لانه يؤلف اكثرية الشعب العربي ،

وليس لان كل سعي للتحرر القومي لا يدعمه وعي الفلاح وبأسه وسائر العصب العامل المنتج في الامة انما هو حديث خرافة وسخافة .

وجدير بنا هنا ان نتساءل : من يعني الدكتور حين يردد الكلام دائماً عن « العربي » و « الشخصية العربية » و « رجالنا » و « نسائنا » ؟ فان الجواب على ذلك يعيننا جد الاعانة على تفسير سلك من النظر يكاد يتمشى في كتابه كله . يقول :

« نحن نهتم بغاياتنا الشخصية واحوالنا الخاصة ، كأن العالم باسره ، خلق لنا ويجب ان يُسير من اجلنا . نحلم بغنى نقتنيه او جاه نكسبه او عز ننساله . وان اتسعت بعد ذلك دائرة اهتمامنا فلكي تشمل اسرتنا وما ورثت من نسب وما تحتل من مقام ، او بلدتنا وما يثور بها من مشاحنات وانقسامات ومن مناورات وعصبيات . وقد يتعدى اهتمامنا هذه وتلك الى الوطن باسره ، فنتحدث عن احواله ومشاكله ، وماضيه وحاضره ومستقبله ، لكن نظرتنا تظل ضيقة وعالمنا يبقى محصوراً » (ص ٢٢٠) .

ثم يقول :

« وكثيراً ما نتساءل عن الافلاس الخلقي الذي منينا به والانحطاط الادبي الذي هوينا اليه ، فنجد ان العامل الاكبر

غيبنا هو التكالب على المادة والسعي الى كسب المال بأية طريقة كانت ، حتى ان واحدنا لا يتردد عن اراقة ماء وجهه وبذل شرفه وتضحية خلقه في سبيل وظيفة تخلع عليه او فتات من المادة يرمي به اولو الامر اليه ... ان سعينا الى المادة لا يقتصر على ارضاء الحاجة ومداواة الفقر ، بل تعدى ذلك حتى اصبح رغبة في المادة من اجل المادة نفسها وأخل بجميع مقاييسنا رافعاً لذة الكسب المادي والشهوة الجسدية فوق كل القيم الادبية والروحية » (ص ٢٤٩ - ٢٥٠) .

ثم يفعى علينا الانانية ، وشهوة التزعم وحب التسلط » (ص ٢٥٠) .

ولا يثيره شيء كقلة مثابرتنا على السعي المتواصل : « ترانا نفور فورات صاخبة متفرقة ، فنجتمع بعضنا الى بعض ونعمل معاً مدة من الزمن ثم لا تلبث عوامل التفكك والتراخي ان توهن رابطتنا وتفرق شملنا » (ص ٢٤٣) .

ولا نحتاج الى نظر طويل في هذه القطع التي يكثر امثالها في الكتاب كي نرى ان الدكتور قد وضع نصب ذهنه فئات معينة من الشعب العربي اخصها : بعض جماعات المثقفين الذين يخيل لهم غرورهم « ان العالم خلق لهم ويجب ان يسير من اجلهم » والذين « يفورون فورات صاخبة متفرقة » ويقنطون سريعاً ويشتغلون بحل عقدهم النفسية بـ « الشقاء الذي يتصاعد

دوما من نفوسهم ... نتيجة للتنازع الداخلي المهلك بين قواهم النفسية المتنافرة المتباعدة » (ص ٢٣٨) — اكثر مما ينصرفون الى تقدير وقائع الامور . ثم جماعات الأثرياء من تجار كبار واصحاب عقارات ضخمة والا فان الدكتور يعلم حق العلم ان سعي الفلاح او العامل العربي يقتصر حتما على ارضاء الحاجة ومداواة الفقر (هذا اذا افلح) ولا يتعدى ذلك حتى يصبح رغبة في « المسادة » من اجل « المسادة » نفسها او شهوة الى التزعم والتسلط كما يقول . على ان هؤلاء ساقطون من حسابه فيما يظهر .

ونحن وان كنا لا نجادله في صحة هذه الامور التي ينسبها الى معظم المثقفين والأثرياء ، لا نراه موفقاً في كثرة وعظه . فرب وعظ كوعظ تلك العجوز الطيبة القلب التي اختطفت لها هرتها قطعة اللحم فوقفت توبخها وتتلو عليها الايات . والهرة قد صرت اذنيها في زاوية من المطبخ تسمع وتأكل ، تستلذ بطعم اللحم وببلاغة الايات وروعة الفن فيها !

ثم ألا يرى الدكتور انه يقسو جداً على بعض مثقفينا وهو يعرف ضآلة ثقافتنا العلمية كما يشهد فصله في هذا الموضوع ، وفصله الآخر عن « الثقافة الصحيحة وعناصرها » وهو فوق ذلك يعرف ان الامم الطامحة الى التوسع والغلبة قد استنبطت الوسائل الفعالة للقضاء على ثقافة الشعوب المحكومة

(ص ٢٠٤) ويعرف ان الجهاد الثقافي لا يمكن ان ينفصل عن الجهاد السياسي لتحرير البلاد وتقوية سلطانها (ص ٢٠٣) ولكنه بعد هذه الخطرات الواعية سرعان ما يذهل ! فنجده يشجب « طغيان العلم الزائف على العلم الخالص » (ص ٤٩) واي طغيان للعلم زائفاً او غير زائف ؟ أحسب الدكتور يعسر عليه ان يعد في البلاد العربية قرية من غير مدرسة ! ثم نجده حنقاً لانصبابنا على المواضيع الادبية واهمال الابحاث العلمية (ص ١٦٠) كأنه لا يدري ان الانصراف الى العلوم كالكيمياء والهندسة لا يشتد الا مع نهضة صناعية زراعية تيسر للكيميين والمهندسين مراكز عمل ، وصناعتنا وزراعتنا مشلولة . وفي اوروبا واميركا « مصابغ » للدكاترة في الادب والتاريخ (اعتذاراتي للدكتور ، فانا لا اعنيه) يعودون فيلقون اقبالا عليهم ، ويكاد يعيا الكيمي والمهندس (اللهم الا التدريس احياناً) .

واعجب ما يفعله الدكتور هو ان يدعو الحكومة الى السيطرة على « منظمات التعليم وعلى سواها من مجاري العلم والادب كالصحافة والاذاعة اللاسلكية والجمعيات الثقافية » (ص ٢٠٩) ويعين واجباً للسلطات العربية (؟) في هذا الظرف الدقيق من حياتنا القومية ان تحسن اختيار الاشخاص الذين توكل اليهم القيام بهذا العمل الخطير (ص ٨٥) وكأنه

في برهة ذهول نسي قوله عن القضاء على ثقافة الشعوب المحكومة (ص ٢٠٣ - ٢٠٤) وانّنا نحن من هذه الشعوب . وضرب لنا مثلا (لعلنا نعتبر !) من « الفعالية الحكومية » في الغرب (هناك العراق وهناك الترياق دائماً !) (ص ٢١٠) ولا ادري كيف صحت المقايسة لديه بين حكوماتنا وحكومات الغرب المستقلة بل لا ادري كيف يريد ان يكل الثقافة الى مطلق حكومة . ومنهن من بيضن سواد الليالي بجرائق الكتب !

وبعد ، فلا بد من وقفة عند « سعينا الى المادة » ، هذا السعي اللعين الذي « لا يقتصر على ارضاء الحاجة ومداواة الفقر ، بل تعدى ذلك حتى اصبح رغبة في المادة من اجل المادة » (ص ٢٥٠) ليلتفت الدكتور الى سير تطور الغرب ، هذا الغرب الذي يحرص على ان يصوره لنا مثالا يحتذى . ألا يرى منذ الثورة الصناعية ان السعي الى « المادة » : اي الانتاج من اجل الربح هو الحافز الذي ساعد في ترقية الصناعة ووسائلها الآلية العجيبة واساليبها العلمية الدقيقة الى حد عظيم ، واعان على اخراج الغرب من الخمول الاقطاعي والانتاج « لارضاء الحاجة » ، فتفتقت للحياة حاجات جديدة كثيرة وتقدم الغرب تقدمه الجبار وبات من الممكن والضروري تنظيم الحياة على اسس افضل في المستقبل . فسعي

العرب وراء « المادة » ليس عاهة من عاهاتهم . وان من علائم النشاط وحب الارتقاء عدم اقتصار الامة على « اوضاء الحاجة » بل تفتيق حاجات جديدة وتنمية الانتاج المادي ، والدكتور طبعاً لا يطمح ان يشيد قومية عربية على القشف والتصوف .

ولكن لعله يعني بكلامه شيئاً آخر . لعله يقصد فقط الطليعة النضالية القومية التي ينبغي لها ان تتألف من كل امة فاقدة الحرية للعمل في سبيل حريتها ، على ان تلك حكاية مختلفة جداً .

صحيح ان هذه الطليعة عليها ان تنفض عنها حب الربح والجاه الخ . بل عليها ان تحدد حياتها للهدف وتضحي بها عند الضرورة . اجل عليها ان تتحلى بمجد هذه الصفات المعنوية التي يذكرها الدكتور ، وبخير منها فيما يتعلق بفهم وقائع الامور وتخطيط سبل العمل ، بتوضيح اساس نظري (علمي فلسفي) يرتبط بحاجة الامة وسير تطورها ، ويحس القوى النامية في المجتمع ويستند اليها .

غير ان هذه الطليعة لا تتألف قط بوعظ المثقفين الناعمين في مراكزهم او بقراءة الكتب فقط ، او بالنصح لاهل الثروات ان يتخلوا عن انانيتهم وعن الربح المادي ويجاهدوا انفسهم الخ . بل انها لتتألف وتتراص وتنقى من الشوائب بالعمل الطويل الشاق وبالاختبارات الكثيرة التي اكثرها مر .

تتألف هذه الطليعة في معظمها من قاعدة الامة ، من ابناء الشعب ، الذين لا يكاد الدكتور يأخذهم بعين الاعتبار فتراه يتحدث عن « عطف احدنا » عليهم (ص ١١٦) .

سوى ان العرب ليسوا وحدهم في هذا العالم . وكتاب ينظر في الوعي القومي العربي لا يمكنه ان يجهل هذه الحقيقة البسيطة . والدكتور زريق شاعر بوجود الغرب ، وفي ذهنه صورة منه تغلب عليها الحسنات (ولا شك ان للغرب حسنات) وقد رأيناه كثيراً ما يضربه لنا مثالا يحتذى (على انه كان مع الاسف غير موفق جداً) ومرة يربط الدكتور العالم العربي اليوم بوضع الانسانية عامة ربطاً صريحاً فيقول :

« الفوضى التي يعيش فيها العالم العربي اليوم هي جزء من الفوضى العالمية التي تتخبط فيها الانسانية عامة والتي لا بد لنا من ان نتأثر بها بعد ان قرب العلم المسافات وجعل من العالم كله بلداً واحداً (ص ١٧٢ - ١٧٣) .

وربما اشتم القارئ من هذا الكلام اننا لولا « العلم الذي قرب المسافات الخ » لكنا بمعزل عن « الفوضى العالمية » ولكنا بألف خير ، كأن الدكتور لا يدري ان هناك عوامل توسعية تربطنا بالعالم وتقهرنا على التأثر بالفوضى العالمية .

ويقول الدكتور :

« ما من امة في المستقبل يمكنها ان تفوز في ميدان

القوميات المتطاحنة الا اذا كانت برجالها ونسائها ، بكبارها وصغارها جيشاً مجنداً الخ » (ص ٢١٠-٢١١) .

وهكذا بعد ان قرر الدكتور ان العالم في فوضى ، قرر ظاهرة قوية في العصر هي تطاحن القوميات ولا ريب انه مصيب الى حد بعيد .

ولكنه لا يكاد يحس ان هذا العصر ايضاً قد برزت فيه قضية تضامن القوميات وامكان تحقيقها بل وجوبه ، كما لم يعرف التاريخ من قبل . فالذي يروعنا حقاً هو تقريره ديمومة تطاحن القوميات في المستقبل ايضاً .

والدكتور يعرف طبعاً تلك النغمة اليائسة التي مؤداها : ان الامم المستقلة منذ اجيال تقع اليوم موطوءة تحت ارجل الدول الجبارة ، بل ان الدول العظمى نفسها لا تكاد تستطيع حفظ كيانها واستقلالها ، فما طاقة العرب المساكين ؟ فبماذا يجيب الدكتور على هذا القول اذا قرر ديمومة تطاحن القوميات في المستقبل كما فعل ؟ لعله يقول :

« كان تيودور روزفلت ... يبتهل الى الله قائلا : اللهم اني لا اسألك حملا خفيفاً ولكنني اسألك ظهراً قويا . » ونحن العرب الذين احاطت بنا المشاكل وارهقتنا الاعباء لا نطلب تخفيفها او ازالتها ... بل نطلب ظهوراً قوية تستطيع احتمالها ونفوساً متينة وارواحا جبارة تستطيع بدابها ان تتغلب عليها

(ص ٢٣١) .

كذا ، نطلب ظهوراً قوية ، نفوساً متينة ، ارواحا جبارة !
الكلام فخم قارع . على ان الواقع يبقى ان تطاحن القوميات
واستعباد بعضها بعضاً لو استمر اساساً لوضع العالم لبات امكان
تحرر العرب بعيداً جداً بالنظر الى موقعهم الجغرافي وحالتهم
الحاضرة وجثوم قوى اشد منهم عليهم ، او احاطتها بهم .
والحق ان تطاحن القوميات لو استمر كما يبشرنا الدكتور
لكانت هناك مبررات قوية لتلك النغمة اليائسة التي ذكرناها .

ولكن هذا التطاحن قد دخل فعلا في دور بلوغ غايته
وانتهائه في سير التاريخ . والى جانب القوى التي تعيش
وتتضخم بالتطاحن تنمو في العالم اليوم ، وفي قلب كل قومية ،
قوى لها المستقبل ، تريد حسم التطاحن .

وذلك طبعاً لا يعني اضمحلال القوميات بل تضامنها
وازدهارها . والتطاحن هو الذي يقضي في الحقيقة باضمحلال
القوميات يفترس بعضها بعضاً ، ولا سيما باضمحلال القوميات
المستضعفة والصغيرة . والدكتور نفسه لم يفته « ان الامم
الطامحة الى التوسع والغلبة قد استنبطت الوسائل الفعالة
القضاء على ثقافة الشعوب المحكومة » (ص ٢٠٣ - ٢٠٤) .

وهكذا يكون الدكتور حين قرر تطاحن القوميات
اساساً للمستقبل ايضاً لم يشمل بنظره كل العالم اولا ، ثم لم

ينظر الى سير التاريخ ، ثم لم يكد يحس ان تقريره لهذا التطاحن في المستقبل ايضاً معناه اقفال باب التحرر في وجه الاقوام المستضعفة والصغيرة ونسف « وعيه القومي » نسفاً .

وهذا سهو في التفكير القومي العربي شائع خطر . وهو بالنتيجة لا يخالف عملياً (او هو يؤدي الى) ذلك التفكير الآثم عند بعض احزابنا وشراذمنا السياسية التي تشخص الى هـذا الفريق او ذاك ضمن نطاق القوميات المتطاحنة ، ولا تفعل سوى اعداد نفسها للمفاوضة .

خلاصة . . .

يقول الدكتور :

« على كل منا عندما يهم بتحبير مقال او القاء خطبة ان يتساءل بصراحة : الى ماذا ارمي ؟ أتراني اضيف بمقالي الى هذه الفوضى الفكرية التي يتخبط بها عالمي واقذف بعنصر جديد الى العناصر التي تتطاحن في محيطي ، فازيد في بلبلة امتي واضطرابها الفكري ، ام انني اعمل لتوجيه قوى هذه الامة العقلية نحو فكرة صائبة او عقيدة واضحة ؟ » (ص ١٧٨) .

ولا ريب ان ذلك امر لزام في عنق اهل الادب والفكر . على انها نصيحة من نصائح الدكتور الغزيرة في كتابه . وليس يرى القارئ بدأ من ان يسائل نفسه : هل اخذ المؤلف بنصيحته جد الاخذ ؟

وهنا يجدر بنا ان نحاول تصفية الحساب مع الدكتور ووعيه القومي :

١ — رأيناه دائماً مستعجلا . فـ « رسالة العرب » و « الفلسفة عليها تشاد العقيدة القومية العربية » و « مسألة

الحزب الواحد ام الاحزاب المتعددة » و « القومية واسسها »
و « اسباب التقهقر والنقص في ثقافتنا » — كل هذه ، كما
رأينا يلم بها الدكتور المامات عابرة بحجة انها تتطلب مثلا
« دروساً عميقة وتأملات طويلة » . فلا يتمالك القارئ ان
يقول في نفسه : ما خطب مؤلف يدفع الي كتابا في مئتين
وثماني وخمسين صفحة ليزعم لي عن هذه القضايا الاساسية
في موضوعه انها تتطلب « دروساً عميقة وتأملات طويلة » ؟

٢ — يطل المؤلف (عن وعي او لاوعي) على القضية
العربية من وجهة نظر مثقف (ضاق ذرعا بمن يحتك بهم)
على انه لا يشمل بنظرته الا المثقفين الناعمين منهم واصحاب
الثروات والعقارات الكبيرة . ولا يكاد يرى القوى الخارجية
(المادية) والعوائق الداخلية (المادية) التي تشل القومية
العربية وحريتها واستقلالها .

٣ — والدكتور لا يصر على حاجة العرب الاولى
الاساسية ، وما تتطلب هذه الحاجة فتراه ابداً مستعداً لانتقاص
الجهاد السياسي ولتقديم « صوفيات » كجهاد النفس وما
اشبه .

٤ — ثم هو لا يبدي تقديراً صحيحاً للدور التاريخي
الذي يجوزه الشعب العربي ولاحوال الغرب والعالم اجمع كما
يظهر من تقريره ديمومة تطاحن القوميات ، ومن أمثاله التي

يضربها من الغرب في ناحية الاقتصاد خاصة . وفهم الدكتور للمسائل الاقتصادية ، حقاً ساذج . « وقد اظهر اختبار العالم في السنوات الاخيرة » في رأيه ، « ان الازمات الاقتصادية لا تعالج الا بالجهد الموجه والعمل المنظم » (ص ١٤) فانتهى هذا العلاج بما نرى اليوم . علاج ناجع ان شاء الله !

٥ — تأثره بالصوفيات قوي في تعابيره ومعانيه . فكثيراً ما يرد كلامه غامضاً جداً ، وما اكثر ما يأتي المشاكل عن طريق رذائل وفضائل روحية وجهادات نفسية . ويغلب عليه فهم المادة والمادية فهما مبتذلا ، مع ان دوس القضايا بالطريقة المادية هو الدرس والتمحيص العلمي الذي يكرر ذكره كثيراً .

على ان في كتاب الدكتور خيراً نسجله له بغبطة وتقدير هو تعلقه بالعرب وغيرته على تراثنا الثقافي وحملته على التعصب الطائفي وتأوجج المثقفين وغرورهم الفارغ اذ يخطون سطراً او يقرأون كتابا او يحملون شهادة الخ .

هذا ، وما ينبغي لنا ان نفترق ايها القارئ الا بعد ان نشكر الدكتور الذي جمعنا على مائدة العروبة لهذا النقاش والتفكير في صميم قضايانا . ولا بد لنا من ان نبسط خلاصة لرأينا في قضية القوميات عامة ، والقضية القومية العربية

خاصة .

اما من الوجهة النظرية في مسألة القوميات عامة ، فضروري ان نهتدي في مسالك تفكيرنا بهذه المعالم البارزة :

١ ــ تتكتل الامة مع سير التاريخ ، وترافق نشأة القوميات (بالمعنى الصحيح) قيام النهضة الصناعية الحديثة في العالم ، وتقوض الاقطاع ، وغلبة اسلوب من الفكر علمي مادي .

٢ ــ تقع القوميات في معسكرين : قوميات متقدمة تسودها فئات صناعية مسيطرة تسعى الى الفتح والتوسع بدوافع التمدد الاقتصادي ، وقوميات مغلوبة على امرها طعمة لمشاريع القوميات الاولى .

٣ ــ تتنافس القوميات الاولى فيما بينها تنافساً مستمراً لتوسيع نطاق نفوذها في العالم . ويبلغ هذا التنافس نتيجته المنتظرة في تطاحنات حربية عظيمة من اجل اقتسام العالم واعادة اقتسامه .

٤ ــ في الآن نفسه تتكون قوى نامية تطلب الخروج من هذا الدور التاريخي (دور تطاحن القوميات) الى دور تعاونها وتضامنها ، وتسعى القوميات المغلوبة على امرها الى الانعتاق والنمو .

٥ ــ ينتهي طموح الفكرة القومية الصحيحة الى : تقوية

طاقة الانتاج عند الامة حتى اقصى حد ، وتحسين احوال الافراد ماديا ومعنويا ، ونشر الثقافة ، وازالة كل العوائق القائمة في طريق ازدهار الامة ونمو مواهبها .

ومعنى كل ذلك ، فيما يتعلق بالقضية القومية العربية ، يمكن تلخيصه في هذه المعالم الاساسية :

١ — العرب اليوم من القوميات المغلوبة على امرها ، يطمحون الى حريتهم ويتضافرون من اجلها ، على انها اولى الخطوات واوجبها في طريق تقدمهم ولمّ شعثهم .

٢ — في كيان الهيئة الاجتماعية العربية بقايا كثيرة مادية ومعنوية تنافي ازدهار القومية ، وتتصل بآفات الاقطاعية (حتى وبالبداوة ايضاً) .

٣ — على ان في المجتمع العربي قوى حية نامية تستند اليها قوميتنا : قوى من طلائع انتاج صناعي زراعي ينبغي لها ان تعزز ، اذ هي مادة بناء النهضة القومية ودعامتها .

٤ — ان ديمومة تطاحن القوميات يتنافى مع مصلحة العرب ، لانهم قومية مستضعفة غنيمة من غنائم التطاحن ، فمصلحتهم ترتبط بخروج العالم من هذا الدور التاريخي .

٥ — لا بد للقومية العربية في سعيها الى التحرر من طليعة نضالية تتألف وتتكيف خلال العمل نفسه ، تتصف بمعنويات رائعة من التضحية والحماسة ، تستمد نواة صفوفها واركانها

من طبقات الشعب (لا من فئات المثقفين وحدهم مثلا) ، وتتبنى نظرة فلسفية الى الطبيعة والمجتمع والتاريخ قوامها درس الامور درساً علمياً في واقعها وفي نير تطورها وانقلابها .

٦ ـ ترمي القوميـة العربيـة الى تقوية الامكانات لدى العرب في ميادين الانتاج والاقتصاد ، وتنشيط ابداعهم الثقافي وتنمية مواهبهم حرصاً على سعادة افرادهم والسعادة التي يستطيعون ان يؤدوها للعالم . . .

ركز النهضة القومية

كان هذا الكتاب في قضايا القومية قد أعد وبدئ بطبعه لما انتشر النبأ العظيم ــ نبأ غضبة العراق واستلاله السلاح في وجه من ارادوا خرق حياده خلافا لمعاهدتهم معه (وهي معاهدة لا شك ان كفة مصالحهم فيها ترجح كفة العراق نفسه) .

وتدل الدلائل التي لا تخطئ على ان حركة القطر الشقيق الباسل انما هي وثبة جبارة في تقدم العرب وتطور ادراكهم القومي من مجرد التغني (الذي لا يغني) ، الى اقامة الدعائم المادية التي ترتكز عليها نهضات الشعوب . ولا نخالنا مغالين اذا قلنا ان هذه الحركة هي اول وثبة عربية قوية جدية في سبيل استقلال العرب وحريتهم وتعزيز كيانهم المشترك . فلم يكن لنا بد من الحاق شيء عنها بهذا السفر الصغير .

لقد ادرك العراق الشقيق ان وضع نفسه في هذه الحرب تحت تصرف فريق من الجبهتين اللتين تتطاحنان انما يعرض بكيانه الحاضر وبمستقبله ومستقبل العرب جملة ، فهب اهلوه

هبة واحدة يتظاهرون امتعاضاً واستنكاراً من جراء انزال الجنود بالبصرة وتلكؤها في الميناء العربي الثمين . واعلنت حكومة السيد رشيد عالي الكيلاني موقفها الى جانب الشعب ، وقد سجلنا بشعور الفخر والغبطة لفخامة رئيس الحكومة تصريحه : ان حكومته ليست مأجورة لاغراض احد كما يريد ان يروج اولو المطامع . فكأن العربي في رأيهم لا يمكن ان يتحرك الا بمحرك من وراء ستار يستغله بالنتيجة ، كما وقع في آخر الحرب الكبرى المنصرمة . وان من الامور الرائعة ان تنشط حركة العراق في وقت لا يستطيع فيه جيش استعماري ان يهرول الى القطر الشقيق بحجة طرد جيش آخر منه .

على اننا نعلم ان حركة العراق ينبغي ان تكون سريعة حاسمة ليتطهر القطر الشقيق من كل جندي محتل ، وكل مطار غريب في اعجل وقت ، فلا يجد فريق محاوب حجة او ضرورة لانتهاك اراضيه باسم محاربة الفريق الاخر . وهكذا يكون لزاما حشد جهود العرب في القطر الشقيق نفسه حتى اقصى حد ، واستنفار العرب في جميع اقطارهم . وقد ابدعت الحكومة العراقية حين اعلنت عفواً سياسياً عاما ، وقررت الاعتماد لا على الجيش النظامي وحده رغم استبساله الرائع ، بل على العشائر المسلحة والشعب المسلح عامة ، فوزعت ما

في خزائنهـا من ذخيرة وعتاد ، فشهدنا لاول مرة حكومة عربية تحمل السلاح هي وشعبها كتفاً الى كتف .

ومن الواضح ان لا بـد للقطر الشقيق من استثمار محنك للوضع العالمي ييسر له الحصول على مواد نضاله الحربية . وان هذا لممكن . فالعراق غني بالبترول الذي استرده من غاصبه . ولئن لم تكن لدى القطر الشقيق وسائل لتصفيته فيمكن بيعه خاما ، ذلك خير من اقفال آباره وعدم الانتفاع بهـا . والعراق غني ايضاً بمواد اخرى ، ويستطيع انشاء العلائـق التجـارية مع كل دولة ترغب في الامر ، فيؤمن بذلك سد حاجاته الحربية . بل انه ليستطيع ان يتلقى المساعدات شريطة ان لا يكون لها ثمن يمس بكيانه الحر وكيان العرب اجمع . ولعـل هناك عناصر تريد توجيـه الحركـة العراقيـة وجهة خارجية واحدة ، ولكن ممـا يدعو الى الاستبشار ان الشعب والحكومة لا يقبلان ، وهـذه سماء العراق لا تطير فيهـا طيارة الا مظللة بالعلم العراقي — اللهم الا ان تكون طيارة عدوة . والاخبار تردنا بان انشاء العلائق الجديدة واستئناف العلائق المقطوعة مع الدول آخذ مجراه . بقيت العجلة فيه ، وهي هنا ليست من الشيطان ! وانا لنستغرب لمـاذا لم تعترف الدولة المحورية الكبرى رسميـاً بالعراق المستقل وحكومته مع انها تؤيد تأييداً مشكوراً حركة القطر الشقيق ، فهذا

الاعتراف الرسمي شيء تكون له قيمته الخاصة .

قلنا ان حركة العراق العربي الابي وثبة جبارة في تقدم العرب وتطور ادراكهم القومي الى اقامة الدعائم المادية التي ترتكز عليها نهضات الشعوب . فاحتلت آبار البترول ، وصادرت البنوك وشكلت بنك الرافدين الاهلي . وبهذه التدابير العملية الملموسة تركز النهضة القومية والاستقلال على قواعد صحيحة ودعائم مادية غير الهوائيات التي ما برحنا نسمعها حول القومية من « صفاء الشعور وتألقه » و « خصائص العبقرية » و « الانبعاث الروحي » وما اشبه .

حتى اذا ضمن العراق العربي استقلاله الصحيح وحياده انصرف باسرع ما يمكنه الى تعزيز جيشه وازالة ما يعوق تطوره الداخلي من بقايا بداوة واقطاع ، ليكون اوفر انتاجا واقوى اقتصاداً وثقافة ، واسعد شعباً ، واشد بأساً على مجابهة موقف عالمي قد يضمه ويضع العرب امام معاهدة صلح جديدة تقدم فيها الذبائح من الشعوب في القصاع . وبالنتيجة ما حك جلدك مثل ظفرك .

عاشت وثبة العراق الجبارة وكسرت ايدي الخونة الذين يحيكون عليها المؤامرات في مدن عربية معروفة ، وكأن هؤلاء نفر لبسوا نعالهم موضع وجوههم .

فهرس

انتهى طبع هذا الكتاب

في «دار المكشوف»

٢٦ نوار ١٩٤١

